الفصل الأول

تولستوي الإنسان

(من الميلاد إلى الرحيل)

من هنا نبدأ

لم يكن يُسمع في سكون الليل المعتم إلا طرقات العصا التي يدبُّ بها على الأرض متحركًا في غرفته بخطى متثاقلة بطيئة دبَّ فيها الإعياء والوهن؛ فقد تخطَّى الثمانين من عمره، وتجسَّدت في جسده كل مظاهر الشيخوخة والهرم، ومع ذلك اقترب من أمتعته، وحاول أن يحزمها جيدًا بيديه المرتعشتين، بعد أن دسَّ فيها كل ما يحتاجه من كتب وأوراق وملابس قديمة وأقلام.

وكانت تقف بجواره ابنته «ساشا» التي حاولت أن تثبط من عزيمته؛ كي يرجع عما اعتزمه من الرحيل، وترك المنزل إلى حيث لا وجهة محددة ولا مقر ثابت؛ فبادرته بقولها:

- أبتي.. ألا زلت مصرًّا على ضرورة ما أنت مقدمٌ عليه؟!.

ساشا، لن نناقش هذا من جديد، يجب أن نسرع قبل أن تشعر أمك بما يحدث، تعالي ساعديني في حزم الأمتعة..

فقد اعتزم أن يسيح في أرض الله؛ كي يبحث عن الحقيقة، زاهدًا متقشّفًا؛ مستبدلًا البساطة بالرفاهية والثراء. وقبل أن يترك المكان كتب رسالة لزوجته «صوفيا» يقول فيها:

«أرجوك يا صوفيا، لا تحاولي البحث عن مكاني الذي سأذهب إليه، من أجل إعادتي...»

وبالفعل لبس الثياب البالية الخشنة وحمل أمتعته وسار لينام في أكواخ الفلاحين..

لم يكن هذا المشهد لقطة من فيلم أو مسرحية تراجيدية، ولم يكن أيضًا فقرة من قصة، ولا رواية؛ ولكنها اللحظات الأخيرة في حياة المصلح الاجتماعي والأديب العالمي والفيلسوف الحكيم ليو تولستوي.

وقد آثرت أن أبدأ الحديث عن الروائي العملاق بما يشبه الحكي الروائي؛ لكن الأهم من ذلك هو أن نعرف ما الذي يا تُرى دفع هذا الأديب الكبير إلى أن يهجر أهله وأبناءه ومنزله وضيعته؛ حيث الثراء والراحة والنعيم إلى السياحة في أرض الله الواسعة، والمبيت في أكواخ الفلاحين البسيطة الفقيرة؟!

وحتى تكون الإجابة كاملة مكتملة أرى لزامًا علينا أن نبدأ في التعرف على هذا العَلَم الكبير..

من أول السطر..

حياة تولستوي ونشأته

لحظات الميلاد

في أسرة روسية من كبار النبلاء الإقطاعيين ذات ثراء هائل، ولد أديب روسيا العالمي ليو تولستوي، وذلك في ٩ سبتمبر ١٨٢٨م، واسمه كاملًا (الكونت ليف نيكولايافيتش تولستوي) المسمّى اختصار بـ«ليو تولستوي»، وكان محل ميلاده هو المكان الذي سيُدفن فيه بعد ذلك وهو ضيعته التي ورثها عن أسرته وهي «ياسنايا بوليانا» في روسيا القيصرية. والتي تقع على مسافة أربعة عشر كيلو مترًا من المدينة الروسية التاريخية «تولا».

وبالتالي فإن تولستوي ينتمي بأسرته إلى طبقة كبار النبلاء والإقطاعيين في روسيا؛ فوالده هو الكونت نيكولاي «إيليتش تولستوي» الذي شارك في الحرب الوطنية عام ١٨١٢م، ووالدته هي الأميرة «ماريا نيكولايفنا»، وكنيتها قبل الزواج لولكونسكايا، ومن بين أجداد تولستوي من جهة الأب (ب . آ . تولستوي) نصير بطرس الأول، وكان من أوائل الذين حصلوا على لقب الكونت، ومن جهة والدته يعود تولستوي بأصوله إلى الأسرة العريقة لأمراء فولكونسكي، والذين كانت تربطهم علاقات القربى مع أمراء؛ تروبتسكي، غوليتسني، أوديسكي، وليكوفي وغيرهم من أمراء العائلات الكبيرة.

ومن جهة الأم يصل تولستوي إلى بوشكين، وكان الأمير (ي . م . غولفين) نصير بطرس الأول جدًّا مشتركًا لهما؛ إذ كانت إحدى بناته والدة جدة الشاعر بوشكين، وابنته الأخرى والدة جدة والدة تولستوي، وبهذا الشكل يكون بوشكين الخال الرابع لتولستوي.

اليُتم المبكّر

لم يكد تولستوي يبلغ الثانية من عمره حتى ضربه اليتم بجناحه؛ فقد ماتت أمه في عام ١٨٣٠م بعد أن أتمت رضاعته. وبدأ تولستوي ينمو ويشبُّ، وحين بلغ الثامنة من عمره

وكان ذلك سنة ١٨٣٦م انتقل أبوه بالأسرة كاملة إلى موسكو؛ للعيش هناك. وكان يوم انتقاله إلى موسكو يومًا رائعًا في حياة تولستوي؛ فقد سجّل في مذكراته: «**كان يومًا رائعًا وما زلت أتذكر دهشتي عندما شاهدت الكنائس والبيوت الحكومية تلك الدهشة المصحوبة بنوع من الكبرياء، والتي كان يتحدث بها والده وهو يقوده في موسكو**»*.

وقد انعكست هذه الانطباعات الأولية عن مشاهدة موسكو في كتابات تولستوي الأولية (الكروملين) (١٨٢٩ – ١٨٤٠م) وفيها يسمى تولستوي مدينة موسكو بالمدينة الكبرى في أوربا من حيث المساحة ومن حيث عدد السكان، كما يتحدث بكبرياء وطني عن «جدار الكرملين» التي شاهدت عار وخسارة كتائب نابليون التي لا تُقهر.

وعلى كلٍّ فقد امتدت فترة إقامة تولستوي في موسكو حوالي أربع سنوات، وكان تولستوي كثير التأمّل في كل ما حوله ومن حوله، يحاول أن يرسم صورة لأمه التي لم يرها ولا يذكر أبسط ملامحها، إلا أن كل رؤاه ومحاولته كانت تتكسر على صخرة اليأس والصمت؛ فلا جد من حوله إلا الأشجار والطيور التي تحلّق في عنان السماء.

إلا أنه كان هناك غراب ينعق في أذنيه بالفقد بين الحين والآخر؛ حتى أتاه اليتم؛ كي يضربه بجناحه الآخر في حالة من الوعي الكامل لكل ملامح الفقدان؛ وبالفعل مات أبوه بعد عام من انتقالهم إلى موسكو وكان ذلك عام ١٨٣٧م. وقد شعر تولستوي بمرارة الفقد تقف غصة في حلقه؛ فيتسلى عن ذلك بأن يسبح في دوّامات من الشرود، والتفكير، يرسم عوالم لا مرئية يراها هو وحده، ويتحرّك فيها هو وحده؛ لكنه في النهاية يجد نفسه وحيدًا.

* صفحات مجهولة من حياة تولستوي صـ ١٤

والد تولستوي

ووالد تولستوي لم يكن نمطًا فريدًا في عصره؛ بل كان مدمنًا للكحول، شأنه شأن جميع أبناء طبقة النبلاء في روسيا القيصرية في ذلك الوقت؛ حيث لا دين يردع، اللهم إلا المسيحية المحرّفة المشوّهة، ولا أخلاق تنفع في صدِّ الإنسان عن الفُحش وارتكاب كل ألوان المعاصي. وربما تأمل تولستوي كثيرًا في وجه وتصرُّفات والده وجميع أبناء طبقة النبلاء من حوله؛ فارتسمت صورة كريهة لكل ما حوله حتى إنه كره البشر..

- وهل تعرف إنسانًا يكره البشر ويكره ما حوله ومن حوله؟!

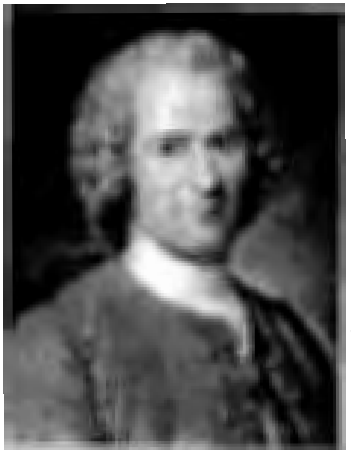

جان جاك روسو

نعم إنه تولستوي الذي كره مجتمعه بكل ما فيه ومَنْ فيه؛ لأن عينه أول ما تفتحت رأت كلَّ من حوله في هذا المجتمع يكذبون على أنفسهم، وكذلك رآهم غير مخلصين بحقّ القانون الأخلاقي. وقد تحول استهجانه بعد ذلك إلى كل ما في المجتمع ومؤسساته بما فيها الدين والثقافة وهو يجري في ذلك على غرار المثال الذي وضعه أستاذه «جان جاك روسو» (٢٨ يونيو ١٧١٢-٢ يوليو ١٧٧٨)*؛ ولكنه يذهب أبعد من أستاذه في إدانته لكل العلوم والفنون.

ولم يسلم الأفراد من غضب تولستوي أيضًا ولا سيما أولئك الذين يمارسون وظائف اجتماعية كالسياسيين والبيروقراطيين والضباط المحترفين وأصحاب المهن والمحامين

* **جان جاك روسو:** فيلسوف سويسري، كان من أهم الكتاب في عصر العقل. وهو فترة من التاريخ الأوروبي، امتدت من أواخر القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلاديين. ساعدت فلسفة روسو في تشكيل الأحداث السياسية، التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية. حيث أثرت أعماله في التعليم والأدب والسياسة.

والقضاة والمعلمين والقسيسين؛ حتى الكتاب والفنانين، وربما سيكون موقفه هذا دافع له للبحث عن الحقيقة.. حقيقة الحياة والبشر.

الانتقال إلى قازان

بعد وفاة والد تولستوي عاش تولستوي في كنف أقاربه، وكان الوصي على أسرة تولستوي هي (ا . ي . أرستن – ساكين) التي هي شقيقة والد تولستوي، غير أنها لم تكن تعتني بتربيتهم شخصيًّا؛ بل كانت قريبة بعيدة عنهم في الوقت نفسه، ولكن التي كانت تقوم على تربيتهم هي المربية (ت . آ . يرفولسكايا) التي تقوم بأمورهم، وحلَّت بالفعل محل والدتهم.

ولم تكد تمضي ثلاثة أعوام على وفاة والد تولستوي حتى توفيت الوصية على الأسرة وذلك عام ١٩٤١م. وفي هذه الآونة كان تولستوي قد بلغ الثالثة عشرة من عمره، ومن هنا وافق على الانتقال مع إخوته إلى قازان مع إخوته (نيكولاي – سيرغي – ديمتري)، وشقيقته (ماريا) حيث تعيش وصيتهم الثانية عمتهم (ب . ي . يوشكوفا) ولم يكن لتولستوي وإخوته مخرج ولا مسلك آخر ويمكن لك أيها القارئ أن تتصوّر حالة تولستوي وإخوته من خلال الرسالة التي أرسلها شقيقه نيكولاي إلى زوج عمتهم «يوشكوفا» يقول فيها:

«نحن؛ أنا وإخوتي وشقيقتي، نرجو من عمتنا أن لا تتركنا وحدنا في مصيبتنا ولتأخذ على عاتقها الوصاية علينا. يجب عليكم يا عمي أن تتصوروا مرارة حالتنا. من أجل الله يا عمي لا ترفضوا طلبنا فنحن نرجوكم من أجل الله ومن أجل المرحومين؛ فأنت والعمة سندنا الوحيد في هذه الأرض».

وافقت العمة على قبول طلب تولستوي وإخوته من تحمل الوصاية عليهم، وأصبح تولستوي يعيش في قازان وكان الوضع هناك مختلف كل الاختلاف عن حياتهم السابقة في «ياسنايا بوليانا» أو في موسكو؛ إذ لم تكن عمتهم «يوشكوفا» تشبه بأي شكل من الأشكال قيِّمتهم السابقة «آ . ي . أوستن ساكين» ولا تشبه مربيتهم «ت . آ . يرغولسكايا» التي دعاها تولستوي في يومياته بدور المرأة الرائعة ذات الأخلاق الرفيعة.

ويعترف تولستوي بأن لعمته الأولى «تاتيانا يرغولسكايا» أثرٌ كبير في حياته وخاصةً في سنوات طفولته؛ حيث إنه تعلم منها شيئين (المتعة الروحية للحب) و(روعة الحياة الهادئة)، وقد وصف تولستوي فيما بعد عمته الجديدة بالمرأة الطيبة الورعة، وفي نفس الوقت وصفها بالمرأة ضيقة التفكير المتكبّرة.

وعاش تولستوي في قازان ست سنوات، وحضَّر نفسه مدة عامين ونصف للانتساب إلى الجامعة بعد أن قرر أن يصبح دبلوماسيًّا.

حبه للعلم

رزق الله تولستوي عقلًا هاضمًا ناقدًا؛ فلم يكن يهضم كل شيء إلا بعد نقده وتمحيصه؛ فإذا خالف عقله لفظه مهما كان مسماه علمٌ كان أو تقاليد أو دين، فلم يكن يأخذ ما يقابله ويردده على أنه علمٌ تعلمه، وهذا يفسر لنا سبب تركه للجامعة فيما بعد، وسعيه إلى تثقيف نفسه بالقراءة والاطلاع والتفكير بعد ذلك ولكن نعود إلى الأمر من أوله مرةً أخرى.

وكان تولستوي قد نشأ منذ صغره نشأةً أدبيةً معتمدة على الحَكْي؛ حيث تعرّف من صغره على الأدب العربي؛ فكان يجلس مع أطفال العائلة على فراش جدتهم يستمعون إلى ما

يقصه الفلاح العجوز الأعمى «ستيبان» من قصص ألف ليلة وليلة، والسندباد وغيرها من الحكايات العربية. وقد انطبعت هذه الحكايات في ذهنه ولازمه الإعجاب بها.

وقد شغف تولستوي كذلك بقراءة الفلسفة واللغات الشرقية ومحاولة التمعّن في أصولها؛ حتى أن ولعه بدراسة الفلسفة واللغات الشرقية أخاف المقربين لديه فقد كتبت «يوفولسكايا» في يومياتها آنذاك: «**إن ليف كائن غريب غير مفهوم في تفكيره وطبعه.. فقد احتلت دراسة اللغات الشرقية التي بدأها في قازان تفكيره لعدد من السنوات غير أنه بعد ذلك ملأت دراسة الفلسفة وقته، ليل نهار. إنه يفكّر فقط كيف يمكن أن يتعمّق في سرّ وجود الإنسان ولا يشعر بنفسه سعيدًا إلا في تلك اللحظات التي يجد فيها إنسانا يستمع إليه وإلى أفكاره التي يطورها بحماسة فائقة.**»

التحاق تولستوي بالجامعة

وفي عام ١٨٤٤م التحق تولستوي بجامعة قازان، وتقدم إلى امتحانات القبول لكلية الفلسفة، القسم الشرقي. وبالفعل نجح تولستوي في امتحانات الرياضيات واللغة الروسية والمنطق، وكذلك في امتحان اللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية والعربية والتركية والتترية؛ ولكنه لم يكن محضرًا للتاريخ (تاريخ روسيا القديم والوسيط والحديث) فرسب فيها وكذلك رسب في مادة الجغرافيا، وعلم الإحصاء، ونتيجة لذلك لم يُقبل في الجامعة.

ومع كل ذلك لم ييأس فظل طوال فترة الصيف في التحضير والمذاكرة مرة أخرى. وفي طريق ١٨٤٤م تقدَّم لامتحانات القبول؛ واجتازها فقبل طالبًا في الصف الأول فئة طلاب اللغة العربية - التركية.

إلا أنه بعد فترة وجيزة ترك دراسته السابقة الذكر، والتحق بكلية الحقوق في الجامعة نفسها؛ وسبب ذلك أنه اقتنع أن عمله المستقبلي كدبلوماسي لم يعد يجذبه كثيرًا.

وفي كلية الحقوق كانت الأنظمة تضايقه كثيرًا؛ بحيث أفقدت تولستوي رغبته في مواصلة الدراسة؛ فبدأ الغياب عن المحاضرات والدروس؛ لعدم اقتناعه بما يُقال في حلقة الدرس؛ لذا عوقب من إدارة الكلية بأن زُجَّ به في (غرفة القبو المظلمة ذات الأبواب الحديدية).

وفي الحقيقة.. كانت عقلية الفيلسوف الثائرة المدققة والممحّصة التي وهبها الله لتولستوي لم تكن تتقبّل الأمور لمجرد وجوده واستقرارها بين الناس في الواقع الحياتي المعيش؛ لذلك لم يلبث أن ترك الدراسة في جامعة قازان كلها؛ لأن طريقة التدريس فيها لم تعجبه؛ فهجرها إلى الأعمال الحرة عام ١٨٤٧م.

وبدأ تولستوي بتثقيف نفسه بنفسه، عن طريق القراءة الهاضمة الشرهة ثم شرع في الكتابة بعد ذلك.

وفي ربيع ١٨٤٧م قدَّم تولستوي طلبًا للجامعة يلتمس منهم السماح له بتركها وعدم اعتباره طالبًا فيها. ودعاه في وقتها عميد الجامعة وهو البروفيسور وعالم الرياضيات الروسي المشهور «ن . ي . لوباتشيفسكي»، وفي مكتبه حاول ثني عزيمة تولستوي عن ترك الجامعة فقال له: «من المحزن جدًّا أنك لم تجد مكانًا لقدراتك الطليعية».

ومن الجدير بالذكر أن تولستوي كان مختلفًا عن جميع أقرانه من الطلاب في الجامعة؛ فكان زملاؤه يسمونه ب (الفيلسوف) لكثرة تأمُّله؛ ولم يقتصر الأمر على زملائه؛ فقد جذب انتباه معلمه أيضًا وهو البروفيسور «د . ي . ماير» الذي وضع له يومًا ما علامة (٢/ ٥) في

مادة القانون المدني وقال عنه: «لقد امتحنته اليوم ولاحظت عدم وجود أية رغبة لديه لمتابعة الدراسة؛ للأسف لديه وجه معبر وعينان ذكيتان حتى أنني مقتنع أنه لو امتلك الإرادة الحرة وكان مستقلًّا؛ فسيصبح إنسانًا رائعًا.»

ولذا اقترح البروفيسور ماير على تولستوي أن يقدم عملًا مستقلًّا وهو عبارة عن إجراء مقارنة بين كتاب الإمبراطورة يكترينا الثانية «الإرشاد» مع كتاب الكاتب الفرنسي مونسكيو «روح القوانين».

وقام تولستوي في العمل بولعٍ شديدٍ وكتب مؤلفًا رائعًا وبذلك كشف عن إمكانيته الفذّة كباحث، وكشف أيضًا عن تفكيره النقدي المتمحّص.

ومن هنا لم يرغب تولستوي في إضاعة وقته في الدروس المملّة في جامعة قازان. وسجّل تولستوي ملامح الفترة التي عاشها في جامعة قازان في روايته «البعث»؛ حيث شرح فيها سبب هجر الأمير الشاب «نيخليودوف» للجامعة يقول: «لقد ترك الجامعة دون أن ينهي الصفوف؛ لأنه كان يرى أنه لن يتعلم شيئًا في الجامعة وأن ضغط المواد اللا ضرورية وإعادة الحديث عنها في الامتحان يعتبر دون فائدة؛ بل وإهانة أيضًا...» وكأن تولستوي يتحدث عن نفسه.

وربما كانت الحالة المزرية المتدنّية التي عليها التعليم في روسيا في ذلك الوقت هي التي دفعت تولستوي بعد ذلك إلى أن ينشأ مدرسة من ماله الخاص، ويعمل بها معلّمًا لأبناء الفلاحين؛ كي يتخرج من بين يديه أجيال يتعلمون العلم ووسائل التفكير كما يجب أن تكون؛ لأنه لاحظ بعد ذلك أن التعليم يعتمد على الحفظ والتلقين فقط، وأن التلميذ يردد الحقائق

والنظريات كالببغاء دون أن يفقه منها شيئًا؛ فإذا سألته المسألة من جهة أخرى وبطريقة أخرى غير التي حفظها يعجز عن الإجابة.

ويمكنك أن تستشفّ هذه الحالة المزرية من خلال وصف تولستوي للقسيس في القرية؛ يقول في إحدى مقالاته عن القسيس القديم الطراز في القرية: «**حتى القسيس في القرية ليس أقل ضررًا من هؤلاء المتعلّمين؛ فهو يعرف القليل وهو أخرق وعاطل وبليد؛ ولكنه يعامل تلاميذه كمخلوقات خلقها الله، ولا يعاملهم مثلما يعامل العلماء النماذج في المختبر، وهو يعمل ما يقدر عليه وغالبًا ما يكون متفسخًا ونافد الصبر جاهلًا وظالما ولكن هذه الرذائل إنما هي رذائل طبيعية بشرية**».

أولى ثمرات تولستوي

لم يطق تولستوي الجلوس في جامعة قازان بعد أن رأى الفساد يضرب بأطنابه كل شيء فيها؛ فانصرف يعمل في الأعمال الحرة ويثقّف نفسه بالقراءة الشرهة والاطلاع المبني على التمحيص والنقد لكل ما حوله، وإعمال عقله في كل ما حوله، وبدأ عقل الكاتب والمفكّر ينضج ويتبلور في داخله حتى وأتته اللحظة التي أراد أن يفرز فيها بعضًا مما هضمه من مؤلفات؛ فكتب في هذه المرحلة الأولى المبكرة من حياته أول أعماله وهو (الثلاثية) التي هي بمثابة شبه سيرة ذاتية لما مرَّ به في حياته على مراحل مختلفة من عمره؛ في الطفولة والصبى والشباب؛ فكتب ثلاثة كتب على فترات زمنية متباعدة، وبدأها بكتابة (الطفولة) في عام ١٨٥٢م؛ ثم (الصبا) في عام١٨٥٤م؛ وختمها بكتابة الجزء الثالث منها (الشباب) عام١٨٥٧م.

وحقيقة نجد أن بطله الرئيس في الثلاثية «نيكولاينكا أرتينيفد» فيه ملامح شخصية كثيرة من شخصية تولستوي نفسه. فطفولته مثل طفولة مؤلف الثلاثية؛ حيث إنها تجري في منزل أرستقراطي، وهو أيضًا ذكي، ولديه خيال خصب، كما أنه يحلل أفكاره وأفعاله بشكل دائم.

ويرسم تولستوي طفولة نيكولاينكا بألوان مضيئة شاعرية ويتحدث عن روحه المتفتحة لكل انطباعات الحياة؛ لكن هاته الانطباعات كانت محصورة بدائرة العائلة ولا تخرج خارج المنزل الأرستقراطي وعندما يدخل نيكولاينكا طور الصبا يبدأ بملاحظة نواقص الناس المحيطين به ويدرك بفكره ضرورة إيجاد طريق؛ لإصلاح العيوب وقبل كل شيء إصلاح عيوبه بالذات.

لكن الحياة الواقعية والأعمال تهدم أحلامه ويبدأ نيكولا ينكا بالتراجع تدريجيا من تأثير محيطه الغبي المتكبّر المنافق المحتقر للناس غير المشهورين من بقيّة الطبقات، وهذا المحيط اللامبالي والقاسي بعلاقته نحو الخدم والأقنان.

أما قصّة الشباب فقد كتب تولستوي قسمًا هامًّا منها في البرج الرابع من حصن سيفاستوبل في ساعات الهدوء القليلة عندما تبدأ أسلحة القصف المدفعي. وقد وصفت هاته القصة سنوات دراسة نيكولاينكا وأول تنافر له مع المحيط الأرستقراطي وسعيه للاقتراب من الطلاب القادمين من الدوائر القريبة من الشعب. وقد وقف تولستوي في ثلاثيّته ضد المفاهيم الكاذبة في مجتمعه التي لقّح بها بطله من واقع مجتمعه وبيئته.

لقد ظهر تولستوي في ثلاثيته كمعلم دقيق عميق في التحليل النفسي، وقد قيّم «تشيرنيشيفسكي» هذا الجانب لدى تولستوي إلى قدراته الخارقة في تصوير (ديالكتيكية

الروح) مبينًا مشاعر وأفكار الإنسان السرية الخفيّة. وفي تعليق تشيرنيشيفسكي، على أعماق تولستوي الأولى أشار إلى أن الكاتب يعبّر بطهارة مباشرة لشعور أخلاقي، وقد توقع أن تظهر هذه السمات في مؤلفات تولستوي القادمة.

ومما يدل على حب تولستوي للحب وعشقه للمعرفة أنه بعد عامين من تركه لجامعة قازان تحديدًا عام ١٨٤٧م، ذهب وأدى امتحانًا في جامعة بطرسبورغ عام ١٨٤٩م، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على بحثه الدؤوب عن العلم والمعرفة؛ فكان بإمكانه أن يكتفي بما رآه في جامعة قازان، ولا يضره عدم تبحّره في العلم فهو من طبقة النُّبلاء في المجتمع الروسي ويعيش حياة ثريّة مرفّهة؛ لكن شيئًا من هذا لم يحدث، بل ظلّ يبحث عن الحقيقة والمعرفة حتى الرمق الأخير من حياته.

ومن هنا نعرف أن تولستوي لم يتخل عن فكرة الحصول على دبلوم جامعي بعد مغادرته لجامعة قازان؛ ومما شجعه على ذلك أن إخوته الثلاثة (نيكولاي – سيرغي – ديمتري) كانوا قد أنهوا دراستهم وتخرّجوا في كلية الرياضيات في جامعة قازان، وبدأوا يحثّونه على عدم مخالفة تقاليد الأسرة. لذا عندما وصل تولستوي إلى (ياسنا بوليانا) اتخذ قرارًا أن يدرس بشكل مستقل منهاج كلية العلوم القانونية وأن يقدّم امتحانًا نهائيًّا في الجامعة.

وبالفعل في عام ١٨٤٧م رسم تولستوي خطة كبيرة – وكان آنذاك في الثامنة عشر من عمره – وبدأ بدراسة جدية للغة الروسية وبعض اللغات الأجنبية الأخرى؛ إضافة للتاريخ والجغرافيا والعلوم الرياضية والعلوم الطبيعية والإحصاء والرياضيات. وقد أورد تولستوي هاته الخطة كاملة في مذكّراته.

ليف تولستوي عام ١٨٦٢

تولستوي منظومة أهداف

وتولستوي لم يكن عشوائيًا في تفكيره ولا في كتاباته؛ بل كان يضع لنفسه قواعد هامة يسير عليه؛ كي تمكّنه من الوصول إلى هدفه وبغيته في الحياة، وكان كلما أخلّ بقاعدة من هاته القواعد نَهَر نفسه كثيرًا وندم أشد الندم، يقول: «كنت أتعس الناس إذ لم أجد هدفًا لحياتي – هدفًا عامًّا مفيدًا – فستكون حياتي عبارة عن سعي نشيط ودائم إلى ذلك الهدف الوحيد».

ومن هنا يتبيّن لنا أن تولستوي كان يضع – دائمًا – هدفًا على مرمى بصره يقول تولستوي: «في داخلي شيء ما، شيء يجبرني أن أعتقد بأنني لم أولد لكي أكون مثل البقية، لكن من أين يأتيني هذا الإحساس؟! أليس ذلك ناتج عن عدم وجود الانسجام في مؤهّلاتي أو لعلني حقيقة أقف على شيء ما أعلى من الناس العاديين؟!...».

من القواعد التي كان تولستوي يضعها أمامه دائمًا هي:

- (كن طيبًا وحاول أن لا يعرف أحدٌ أنك طيب).
- (ابحث دائمًا عن الجانب الطيب في الناس ولا تبحث عن الجانب السيئ فيهم)
- (قل الحقيقة دائمًا).

وبالفعل كتب تولستوي مطوّرًا أفكاره عن ضرورة العيش والسعي وراء هدفه فقال: «يجب على كل إنسان أن يملك هدفًا طوال حياته؛ هدفًا من أجل شهرة العصر، وهدفًا من أجل الشهرة الوقتيّة، وهدفًا لمدة عام، وهدفًا لأسبوع، وهدفًا ليوم، وهدفًا لساعة، وضحّى بالأهداف الأولى من أجل الهدف الأسمى»، ووضح لنفسه مهامًا ما انطلاقًا من تلك الأهداف الرفيعة السامية: «لتكن مفيدًا لوطنك بقدر ما تستطيع».

فقد كتب تولستوي هاته القواعد من أجل أن يبني حياته بما يتناسب معها؛ لذا كان يعاقب نفسه بقسوةٍ إذا ما حدث منه خروج ومخالفة هاته المنظومة من القواعد. وعلى سبيل المثال فإن يوميات شهر آذار عام ١٨٥١م من مذكّرات تولستوي مليئة بكشوفٍ عن حالاتٍ خالف فيها تلك القواعد، يقول: «لقد بدا الضعف عليّ كبيرًا في هذه الفترة، والأهمّ أنني لم أعر انتباهًا للقواعد الأخلاقية متّبعًا القواعد الضرورية للنجاح».

كتب تولستوي أيضًا في يوم ميلاده في ٢٨ أغسطس ١٨٥٢م: «لقد أصبح عمري ٢٤ عامًا ولم أفعل شيئًا حتى الآن، أشعر أن السنوات الثمانية التي مضت وأنا أتصارع مع الشكوك والانفعالات لم تذهب سدًى، لكن من أجل أي شيء وجدتُ هذا ما سيكشفه المستقبل)

- **وبعد عام:**

«لم أفعل شيئًا.. الكسل فقط. ويعذّبني بشكلٍ مُرعب إدراكي لكسلي.. الحياة مع الندم الدائم.. عذاب!!).

- **وبعد عام آخر تقريبًا كتب:**

«سأقتل نفسي إذا مرت ثلاثة أيام دون أن أقوم خلالها بفعل شيء مفيد للناس».

وبالتالي كان تولستوي يقدح عزيمته بالهمة وينشطها بمثل هاته الكلمات والقواعد التي يضعها أمام عينيه من وقت لآخر؛ فتولستوي من اللحظة الأولى كان ينظر إلى دراسة ذاته من وجهة نظر أخلاقية منظّمة.

الحب الأول لتولستوي

حين كان تولستوي في ميعة الشباب والصبا ضربه الهوى بجناحه؛ فأحب إحدى خادمات عمته. وهذا شيء كان مستغربًا في المجتمع الروسي في ذلك الوقت؛ لأنه كان مجتمعًا مقسمًا إلى طبقات متفاوتة من حيث الشرف والضعة، والفقر والغنى. وعادات هذا المجتمع وتقاليده كانت تحرّم زواج أبناء أو بنات طبقة النبلاء من الآخرين في طبقة الأقنان (العبيد) أو من هم على شاكلتهم من الفلاحين البسطاء الفقراء.

وهذا الفعل وإن كان مستغربًا في هذا المجتمع الطبقي إلا إنه كان مجرد شيء عادي في نظر تولستوي؛ الرجل الذي آمن بالمساواة بين الناس جميعًا ومن صغره وهو ينقم على أبناء طبقته التي يعيش فيها لما يراه من الكذب والخداع وانعدام الأخلاق؛ لذا أصرّ على حبه للخادمة التي تعيش في بيت عمته، وكأنه قال لنفسه:

- ما الذي يمنع رجل مثلي من حب امرأة مثلها؟!!

أليس الناس سواسية خلقهم الله من روح واحدة؛ إن الإنسان في نظر تولستوي يحكم من خلال ما هو مستقر في دخيلته؛ فالنشاط الحقيقي للإنسان هو النشاط الداخلي لروحه، وليس النشاط الخارجي كما يعبر عنه في الحياة الاجتماعية والسياسية.

وحاول تولستوي أن يحطم هاته الأكليشيهات القبيحة من العادات والتقاليد في مجتمعه قبل أن يحطمها في أدبه وكتاباته؛ فبالفعل أصر على حبه لهذه الخادمة التي من المحتمل أنها كانت تبادله نفس المشاعر من الحب البريء الصافي. إلا أنه لم يكن من عمته التي كانت تمثل تقاليد الطبقة النبيلة إلا أن طردت هاته الخادمة المسكينة من بيتها، وأمرتها بالاختفاء إلى الأبد من حياة تولستوي.

وتشير مذكرات تولستوي نفسه إلى أي مدى كان معنيًّا بتلك الفتاة؛ فحبه لها قد بلغ الزبى والرُّبى، ونجد تولستوي يصرح بذلك قائلًا في مذكراته: «**أنا واقع في الحب كما لم أكن في أي وقت من حياتي وليس لدي أي فكرة أخرى سوى هذا وأنني أعاني**».

وكانت له لحظات من انعدام الاكتراث بل حتى الاشمئزاز؛ ولكن تحنانه لهذه الخادمة التي قدحت زناد الحب الأول في داخله أخذ يتصاعد في عنفوانه ويزداد اشتعالًا فنجده يقول: «**إن شعوري نحوها قد صار مرعبًا**» ثم أردف يقول بعد ذلك: «**ما أشد قربها مني.. والأمر الآن ليس هو مجرد شعور الذكر بحاجته إلى الأنثى ليقضي منها مآربه الجنسية؛ بل هو شعور الزوج تجاه زوجته**».

وشاءت الأقدار أن يتقابل تولستوي بعد ذلك بهذه الخادمة التي عشقها كثيرًا؛ ففرح بذلك فرحًا شديدًا، ويبدو أنه ظل يقابلها كثيرًا حتى بعد أن تزوج من صوفيا، كان يقابلها بعيدًا عن الأعين، وكان قد أنجب منها ابنًا صار فيما بعد حوذيًّا (سائقًا) لعربة أحد أبنائه الشرعيين من صوفيا.

وفي الوقت نفسه وبفعل واحدة من الحركات التي كان تولستوي يحب أن ينظر إليها على أنها نزاهة لا لبس فيها ولا انحراف وهي حركات غالبًا ما كانت مقصودة لإحداث الألم لدى الناس الآخرين قصدًا يدعوا إلى الإعجاب؛ فقد أظهر تولستوي زوجته على مذكراته الخاصة والتي كانت تضم بين دفتيه رسائله للخادمة التي أحبها في بداية حياته، وكان ذلك في وقت لا تزال هذه المحبوبة عشيقته ما تزال تأتي أحيانًا إلى البيت ولكن دون أن يعرف أحد علاقتها بتولستوي.

وكانت زوجته الكونتيسة صوفيا ذات طبيعة غيورة جدًّا فما كادت أن تعلم بعلاقة تولستوي بهذه المرأة إلا وأخذت تحترق من داخلها، وتقوم بحيل كثيرة كي تراقب حركات تولستوي في ضيعته؛ فكانت تتخفّى في شكل فلاحة وتسير وراء تولستوي دون أن يعرفها أحد، وتنظر هل ما زالت هذه الخادمة تأخذ تولستوي بجمالها وفتنتها.

بيت ل. تولستوي عام ١٩٠٨ في ياسنايا بوليانا

الحب الأول في إبداع تولستوي

وترك تصرف العمة أثره السلبي السيئ في نفس تولستوي؛ فعزف تولستوي عن الحب مرةً أخرى وظل يجتر لحظات حبه الأول؛ وربما يفسر لنا هذا سرُّ تأخر تولستوي في الزواج؛ فلم يتزوج حتى سن الرابعة والثلاثين من عمره؛ بل ربما يفسر لنا هذا الأمر سر صمت تولستوي لمدة طويلة بشأن أشد المواضيع شاعرية وهو الحب أو الحديث عن الحب في كتاباته وإبداعاته، وظل النقاد ينتظرون بنفاد صبر أن يكتب تولستوي عملًا أدبيًّا يهتم فيه بالحب؛ فلم يفعل إلا عام ١٨٥٩م حيث كتب قصته «السعادة العائلية» التي كان البطل فيها رجل

متقدّم في السن لا يريد أن يصرّح بحبه بالطريقة الروائية المألوفة؛ فحينما نقرأ القصة نجده يقول:

«فإنني أفكّر كيف، لا بد أن يكون وجه الملازم ستريلسكي أو ألفريد باديًا عليه الإحراج حينما يقول: «أحبك يا ألينور» ظانًّا أن شيئًا غير معتاد سيحدث فجأة؛ ولكن ما من شيء يحدث عنده، فالعيون نفسها والأنوف نفسها تظل هي ذاتها كما يظل ذاته كل شيء آخر..».

ولم يفت تولستوي أن يسجل قصة حبه الأول في إبداعاته ولكن بصورة مختلفة بعض الشيء، ونجد ذلك في روايته (البعث) التي بدأ في كتابتها عام ١٨٨٩م ولم ينته من كتابتها إلا في عام ١٨٩٩م ونشرها في نفس العام. وفي الرواية نجد الأمير «نيخوليودوف» يجد نفسه فجأةً، وقد جلس بين محكمين عليهم أن يصدروا حكمًا على فتاة تعرف أنها خادمة عمته التي أغواها في ظروف مماثلة وهجرها حينما صارت حاملًا، وقد صارت منذ ذلك الحين بغيًّا، واتهمت بجريمة قتل شنيعة كانت بريئة منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب، ونجد في المحاكمة أنه يجري إغفال كل متطلبات العدالة وسببه إلى حدٍّ ما هو إهمال المحكمة؛ ولكن سببه الآخر يكمن في جُبن نيخوليودوف نفسه، ولذلك فإن الفتاة تنفى إلى سيبريا.

ثم يقوم نيخوليودوف بعد ذلك باستخدام كل ما لديه من نفوذ ابتغاء نقض القرار كما يأخذ على نفسه عهدًا بأن يكفّر عن خطيئته وذلك بأن يلحق بها إلى حيث نُفيت ويتزوج منها هناك. وهو يستطيع أن يجعل الحكم عليها أخف كما أنه يصاحب المحكوم عليهم في مسيرتهم الطويلة؛ ولكن «ماسلوفا» توفّر عليه الفعل النهائي؛ ذلك أنها بعد أن عرفت عدم ملائمة الوضع بينهما تختفي من حياته، وذلك بأن تتزوج واحدًا من الذين سجنوا معها. و«نيخوليو

دوف» يصادف أن يقع على نسخة من الإنجيل (العهد الجديد) يعطيه إياها إنجيلي جوال فيتحوّل بعد قراءته إلى عقيدة تشبه عقيدة تولستوي.

وينهي تولستوي الرواية بشكلٍ مفتوحٍ لا تستطيع أن تستشف من خلاله ما الذي حدث لنيخوليودوف فيقول: «**أما كطيف ستنتهي المرحلة الجديدة هذه، فالزمن وحده كفيل بالإبانة عنه**» ويمكننا نحن أن نستشف ما حدث لـ«نيخوليودوف» إذا عرفنا ما حدث لتولستوي؛ لأن نيخوليودوف هو قناع لتولستوي.

يقول تولستوي عن الحب:

«**إن دوام الحب بين الزوجين من رابع المستحيلات. إنه قد يكون حبًّا، ولكن إلى وقتٍ قصير جدًّا، ثم لا يدوم إلا في الروايات فقط، وأما بين الناس فعديم الاستقرار في قلبين معًا، وكل رجل.. متزوجًا كان أو غير متزوج إذا اجتازت به غادة فاتنة فأكثر ما يكون منه أن يوجّه إليها التفاته وقد يبذل بعضهم كل مرتخصٍ وغالٍ بعد ذلك في سبيل الوصول إليها. والمرأة من هذا القبيل كالرجل فإنها تجتهد للاتصال بأكثر من واحد دائمًا، وما دام يمكنها هذا الاتصال فهي نائلة أربها لا محالة. إذا قلنا إنه يمكن للمرأة أن تحب زوجها طوال الحياة فما مثلنا في ذلك إلا مثل من يوقد شمعة وهو يعتقد أنه تدوم مضيئة طول الدهر**».

تولستوي والدعوة للمساواة

انبثقت فكرة المساواة في حياة تولستوي وهو لم يزل في ميعة الصبا والشباب؛ لذا كرة البشر الذين يعيشون في مجتمعه في ذلك الوقت لما رآه من مناقضات تملأ حياتهم، ولما وجده من فوارق تحكم علاقة الناس ببعضهم البعض داخل المجتمع الطبقي المنقسم إلى نبلاء لهم الحق في كل شيء وعبيد ليس لهم الحق في أي شيء إلا الأكل والنوم والعمل، وعدم التطلع

إلى ما بأيدي النبلاء؛ لذلك نجده يحمل همّ التغيير في هذا المجتمع الفاسد سواء عن طريق كتاباته وإبداعاته التي يريد أن يصور فيها للناس المجتمع كما يجب أن يكون، أو عن طريق مساهمته في بعض الأفعال التي تغيّر من المجتمع وتستبدل خيره بشرّه؛ كأن نراه يساهم كثيرًا في إغاثة المنكوبين في المجاعة، وكأن نراه يسهم إسهامًا مباشرًا في حركة تحرير الأقنان والعبيد. فتولستوي مثله كمثل أستاذه «جان جاك روسو» و«عمانويل كانت» اللذان آمنا أشد الإيمان بالقانون الطبيعي؛ فكان تولستوي مقتنعًا أشد الاقتناع بأن للبشر

المجتمع الروسي زمن تولستوي

حاجات مادية وروحية أساسية في كل مكان وزمان ولا يمكن الاستغناء عنها؛ وإذا ما أشبعت هاته الحاجات فإن الناس سيحيون حيوات متناغمة هي هدف طبيعتهم؛ فالقيم الأخلاقية والجمالية وغيرها من القيم الأخرى هي موضوعية وخالدة وتناغم الإنسان الداخلي يستند على صلته الصحيحة مع هذه القيم.

وما سبق لا غرو فيه إذا علمنا أن تولستوي نفسه يقول: «**كن طيّبًا، واحرص على أن لا يعرف أحد أنك طيب لئلا يعتريك العجب، وابحث عن الجانب الطيب في كل من تعامل من الناس، وإياك أن تفتش عن الجانب السيئ فيهم، وقل الحق دائمًا ولا سيما على نفسك!**».

وأخذ تولستوي ينشر مقالاته الداعية للمساواة بين الناس وبلغ عدد ما كتب «عشرة آلاف رسالة»، حتى لقب بـ «محامي مائة مليون من الفلاحين الروس». حتى إن تولستوي أشار أكثر من مرة إلى أن حبه الأول في حياته كان للموجيك (الفلاح الروسي).

ومن هنا خشيت زوجته صوفيا أن يوزّع ممتلكاته على العاملين بها كما يدعو في مقالاته، فقالت له مهددة : «**يبدو أن حياتنا تسير إلى قطيعة مؤكدة. ليكن.. فأنا وأنت على تنافر دائم منذ التقينا.. أتريد أن تقتلني وتقتل أولادك بمقالاتك هذه؟ لن أسمح لك بذلك!**».

ولكن تولستوي مضى فيما يفعل ووضع أفكاره موضع التطبيق، ووزّع جزءًا كبيرًا من أرضه على المزارعين الذين يعملون لديه، وافتتح لأبنائهم مدارس كان يدرّس لهم فيها بنفسه، وأنفق معظم ثروته على الفقراء.

وفضلًا عن ذلك كان تولستوي يدافع بلا هوادة عن الفرضية القائلة بأن الكائنات البشرية أكثر تناغمًا وانسجامًا في طفولتها مما تكون تحت التأثير المفسد للتعليم في الحياة التالية. وكتب تولستوي بعد ذلك في سنة ١٨٦٢م: «**(يولد الإنسان كاملًا) هذه هي الكلمة العظيمة التي نطق بها روسّو، وسوف تبقى مثل الصخرة كلمة متينة وصحيحة**».

فالمثال الإنساني عند تولستوي هو عبارة عن مجتمع قوامه أناس أحرار متساوون يحيون ويفكّرون بنور ما هو حقيقي وصحيح، وعلى هذا فلا يكونون في نزاع بعضهم مع بعض أو مع أنفسهم.

وهناك أمر آخر آمن به تولستوي إيمانًا عميقًا وعبّر عنه في كتاباته وإبداعاته المختلفة وهو أن الناس البسطاء من الفلاحين والقوزاق وأشباههم يمتلكون موقفًا أكثر طبيعية وصحّة من موقف الناس المتمدنين تجاه هذه القيم الأساسية وإنهم أحرار ومستقلون بمعنى لا يكون معه المتحضرون كذلك؛ وذلك لأن المجتمعات الفلاحية هي في وضع يمكنها من تزويد حاجاتها المادية والروحية الخاصة بها من مصادرها هي بالذات؛ شريطة ألا تسرق أو تستعبد من قبل مضطهدين أو مستغلين.

بينما الناس المتحضرون يحتاجون من أجل بقائهم إلى العمل الإجباري والضروري الذي يقوم به غيرهم من الأقنان والعبيد والجماهير المستغلَّة وهي تسمى تسمية ساخرة مناقضة للحقيقة باسم (المعتمدين)؛ ولكن الحقيقة على العكس من ذلك؛ لأن سادتهم هم الذين يعتمدون عليهم، والسادة في الوقت نفسه طفيليون على الآخرين؛ فهم يذلّون ليس لمجرد أن استعباد الآخرين أو استغلالهم إنكار للقيم الموضوعية مثل العدالة والمساواة والكرامة البشرية والحب وغيرها من ألوان القيم التي يتوق الناس إلى تحقيقها – ولكنهم يذلون في نظر تولستوي لسبب أعظم وأهم من ذلك وهو أن العيش على مواد مستعارة أو مسروقة، وبالتالي الإخفاق والفشل في أن يكون الإنسان كافيًا لنفسه بنفسه.

تولستوي والماديات

يؤمن تولستوي بصورةٍ أكيدةٍ بأنّ الغنى لا يجلب السعادة ويرى أنّ المسيحي المثالي يجب أن يعيش حياةً فقيرةً: «تلميذ المسيح يجب أن يكون فقيرًا.. يجب أن يكون فقيرًا ومتشرّدًا.. بهذا بالذات علّمنا السيّد المسيح، وبدون هذا لا يمكن الدخول إلى ملكوت السماوات. وبدون هذا لا يمكن أن نكون سعداء هنا على الأرض» (١٠٠ ص٤٢٦-٤٢٧).

ويؤمن تولستوي بالتخلي عن الملكية الخاصة، وبضرورة العمل، لأنّ الناس العاطلين لا معنى لحياتهم، والآخرون يغنى عن حياتهم، حتى هم يغنى عن أنفسهم.

كتب تولستوي مؤلفه «بما أؤمن؟» بحماسةٍ كبيرةٍ، وكنا نتحسس في كلّ سطرٍ إيمانًا ثابتًا بالفكر الذي يدعو الناس إليه. لاحظ ب.ي. بيريوكوف أنّ هذا المؤلف أقوى عملٍ فلسفي لتولستوي من بين أعمال تولستوي الدينية (٩٠ ص٢١)

كتب تولستوي في عام ١٨٨٦ كتاب «وهكذا، ما الذي يجب علينا عمله؟» ويبدأ بتصديرٍ من أناجيل متّى ولوقا ومرقس. وكان التصدير بسيطًا واضحًا، لا يعرف ازدواجية الفهم. ويدعو فيها السيّد المسيح الأغنياء لتوزيع ثرواتهم على الفقراء، ويطلب من الأغنياء عدم اللهث وراء الثروة لأن قلب الإنسان يكون حيث ثروته. ولا يحق للإنسان عبادة إلهين فإمّا اللهّ وإمّا المال..

وعندما رأى تولستوي شقاء الناس في المَلاجئ، اعتبر نفسه شريكًا في الجريمة التي تنفّذ ضد هؤلاء الفقراء. ويجيب عن سؤال «ما العمل؟» مقدمًا الحلول الثلاثة التالية:

الحل الأول: لا يجوز الكذب على النفس وعلى الآخرين.

والحل الثاني: الاعتراف بالذنب أمام الآخرين وعدم اعتبار تصرفاتنا محقةً.

والحل الثالث: ضرورة العمل والكدح والتعب وعدم الخجل من أيّ عملٍ كان.

ومن أجل الحصول على السعادة الكاملة من الضروري تغيير الحياة بصورةٍ ترضي الضمير والوجدان.

كتب تولستوي في الثمانينيات سلسلةً من القصص الشعبية، التي تحتل مكانةً مرموقةً في تراثه، وتهدف هذه القصص إلى نشر الأفكار الأخلاقية التي نادت بها تعاليم السيّد المسيح، مستخدمًا من أجل ذلك الفن القصصي، والصورة الفنية البسيطة، بحيث يستطيع قراءتها الشيخ المتقدم في السنّ والمرأة والطفل وكلّ الناس، وبعد قراءتها تدخل نسمة من الرحمة والمحبة وحبّ الخير إلى قلب القارئ.

كتب تولستوي (١١٣ ص٣٢٦) تتضمن هذه القصص تعاليم تولستوي حول عدم مقاومة الشر بالشر، والعنف بالعنف. وتنادي بسعي الإنسان نحو الكمال عن طريق تحسين الذات من الناحية الأخلاقية.

وصوّر تولستوي شخصيات إيجابيّة يعيشون حسب مبادئه الأخلاقية، من بين هؤلاء بطل الأسطورة أو القصة الشعبية «كان في القرية إنسان صادق» (١٨٨٢) «الذي عاش بمخافة اللهّ مدة ثلاثين عامًا، ولم يتخاصم مع أحد، ولم يشتم أحدًا، وعاش متواضعًا، وطلب الحسنة، ومنذ شبابه لم يقرب النساء ماعدا زوجته» (١٠٢ ص٣٢٦).

في عام ١٨٨١ في مجلة «استراحة الأطفال» نشر تولستوي أسطورة «بما يعيش الناس؟» وأخذ التصدير من الكتاب المقدس. وتنادي الآيات الإنجيلية التي تصدرت الأسطورة بضرورة المحبة ومساعدة الناس بعضهم لبعض، ومن يرفض مساعدة الآخرين، يحكم على حياته بالموت، أو الحياة نفسها تحاكمه، وتحكم عليه بالموت، ويشرح بطل الأسطورة ميخائيل لسيمون أنه عرف أنّ كلّ إنسان يعيش ليس باهتمامه بذاته وإنّما بالحبّ..» (١٠١ ص٢٤).

وفي قصة «الأخوان والذهب» (١٨٨٥) كانت عواطف تولستوي إلى جانب الأخ الأصغر، الذي هرب من مناجم الذهب، وليس إلى جانب الأخ الأكبر الذي استخدم الذهب من أجل أهداف نبيلةٍ، لأنّ العمل النبيل يرضي اللهّ ويخدم الناس وليس الذهب» (١٠١ ص٣٠).

وتتحدث قصة «إلياس» (١٨٨٥) حول الفلاح، الذي اغتنى، وعاش خمسين عامًا في الثروة والرفاهية، ولم ير السعادة. ورأى السعادة عندما فقد ثروته.

أمّا في قصة «حيث الحبّ، هناك الله» التي كتبها تولستوي في عام ١٨٨٥، فيفقد مارتين، الذي يعمل حدادًا، أقاربه، وأصدقاءه، ويبقى وحيدًا وآنذاك ييأس من الحياة. وطلب من الله الموت. وتذكّرنا هذه الشخصية بشخصية أيوب في العهد القديم.

أمّا في أسطورة «حول إيفان المجنون..» (١٨٨٥) فيبارك تولستوي عمل الفلاحين، وبنية القصة تشبه بنية القصص الشعبية الروسية. يصور المؤلف فيها ثلاثة أخوة، الأكبر والأوسط ذكيان في حين يعتبر الأصغر مجنونًا. يحب الأخ الأصغر إيفان العمل، ومتعلق بالأرض. ولذلك يخرج منتصرًا في كل التجارب الصعبة. ولا توجد في مملكته نقود، ولا جيوش ويتبادل السكان في المملكة السلعة بسلعةٍ أخرى، أو يدفعون ثمن السلعة عملًا. ولم يدفع السكان ضرائب أو إتاوات. وتبارك الأسطورة مملكة إيفان وأنظمته «وكان في مملكته عادة واحدة وهي من يعمل يأكل، ومن لا يعمل لا يأكل، من كانت يداه خشنتين بسبب العمل يحتل المكانة الأولى».

أمّا في قصة «الخاطئ التائب» (١٨٨٠) فيكتب تولستوي عن إنسانٍ عاش سبعين عامًا في الخطيئة، ولم يقم بأعمالٍ صالحةٍ أبدًا، وطلب المغفرة من اللهّ عندما كان على فراش الموت فقط، إذ كان يعلم أنّ الله رحيم غفور ويتقبل توبة التائبين ويغفر الخطايا. ويأمر الناس بمسامحة بعضهم بعضًا.

فلقد كان الرسل والقديسون مخطئين في حياتهم، ومع هذا فلقد تابوا وأصبحوا رسلًا وقديسين، لأنّ الروح الإنسانية واسعة وتستطيع أن ترتفع أحيانًا إلى السماوات وأحيانًا تسقط إلى الأرضيات، أحيانًا تقوم بأنبل الأعمال، وأحيانًا أخرى تقدم على أسقط الأعمال. فلقد أنكر القديس بطرس السيّد المسيح ثلاث مرات قبل أن يصيح الديك، أي قبل أن يطلع

الفجر، ومع هذا وجد في نفسه المقدرة على القيام ببطولة مرافقة السيّد المسيح في يومه الأخير، في حين هرب بقية التلاميذ. فلقد رفع القديس بطرس سيفه مدافعًا عن السيد المسيح، ولكن المسيح قال له: مايؤخذ بالسيف بالسيف يرد، أي لم يسمح المسيح باستخدام العنف. وكان النبي داود غنيًا وملكًا، ولم يحرمه الله من السعادة، ومع هذا طمع بامرأة إنسانٍ فقيرٍ، وأخذها وقتل زوجها، وبعد ذلك تاب واعترف بخطاياه.

ويطالب تولستوي بالقناعة في قصة «كم يحتاج الإنسان من الأرض؟» وينادي بالتخلّي عن الملكيّة الخاصة، والقصة موجّهة ضد الطمع، الذي يودي بالإنسان إلى الهلاك. وتركت القصة أثرًا كبيرًا على الكتّاب الأجانب -كتب ت. ماتيليوفا (١٦٩ ص١٨٩) «جذبت هذه القصة هنري مان، الذي كان يكره الملكية البورجوازية، لأنّها واضحة وصريحة، وأعجبه شكلها». وكذلك دعا تولستوي الناس إلى المحبة والتسامح، وليس إلى الانتقام. وكانت فكرة التسامح الفكرة الأساسية في قصة «الاشبين».

يمكن أن نجد نداء تولستوي إلى التخلي عن الثروة والمجد ونداءه في الحياة من أجل الآخرين، وليس من أجل الذات، في مؤلّفاته الكثيرة، على سبيل المثال «حلم الملك الشاب»، «الأب سيرغي» (١٨٩٨)، مسرحية «الجثة الحية» ١٩٠٢، مسرحية «سلطة الظلام» (١٨٩٥)، «هدم جهنم وإعادة بنائها»، «ملكوت الله في داخلكم» (١٨٩٣).

يجتمع أشخاص من قوميات وأديان مختلفة في قصة «مقهى سورات» ١٨٨٧ منهم المسلم والمسيحي الكاثوليك والبروتستانت واليهودي، ويتحدثون عن جوهر الله وكيفية عبادته. ويعتبر كلّ واحد منهم ديانته الصحيحة، في حين كانت الديانات الأخرى على ضلال. وعبّر أحدهم أن الله واحد للجميع، وأنّ عدو الإنسان كبرياؤه، الذي يحول دون وحدة الناس ويفرّقهم. فلقد أمر الله الجميع بالرحمة والمحبة، لأنّه رحيم ومحب للبشر، وغفورٌ وتوّاب.

تولستوي ضابطًا في الجيش

طرقت كلمة الحرب سمع تولستوي وهو لم يزل طفلًا صغيرًا؛ مما دفعه إلى حب بطولات الصيد والحرب؛ وكان أغلب رجال عائلته في الجيش؛ فقد كان جدّه وجد جده عسكريين. وكان والده كذلك متطوّعًا في الجيش وعمره ١٧ سنة واشترك في الحرب الوطنية لعام ١٨١٢م. وكذلك فعل شقيقه الأكبر؛ إذ تطوّع في الجيش واشترك في حرب القفقاس.

لذا حين كان تولستوي في سن الثانية والعشرين من عمره أراد أن يقدّم خدمة لوطنه إلى جانب الكتابة؛ فالتحق بالجندية حيث أدى امتحانًا عام ١٨٥٢م؛ كي يصير ضابط صفّ، وبالفعل اجتاز الامتحان وعُين في حملة السلاح (صف ضابط) من الدرجة الرابعة وخدم بصفة الرتبة حوالي عامين حتى تحول إلى ضابط.

وكان الجيش الروسي في ذلك الوقت في حرب في القفقاس وشارك في بعض المعارك ضد جيش المريدين بقيادة الإمام شامل. لكن تولستوي أحب القفقاس وأثرت فيه حياة شعوبهم وكتب عن تجاربه تلك موضوعات نشرت في الصحف.

وكانت السنوات الثلاث التي قضاها تولستوي في القفقاس مليئة بالانطباعات، وقد شكّلت أحداث القفقاس المادة لقصص تولستوي؛ مثل: (الإغارة) عام ١٨٥٣م و(قطع الأخشاب) عام ١٨٥٥م، و(التجريد من الرتبة) عام ١٨٥٦م، وكانت مشاهدته لحياة القوزاق أساسًا للقصة التي كتبها فيما بعد بعنوان (القوزاق) (١٨٥٢ – ١٨٦٢م).

لذا كتب تولستوي في إحدى رسائله بأن القفقاس كانت بالنسبة له مدرسة للحياة، والقرم أشد صعوبة وقسوة وتشهد على ذلك قصصه عن سيفاستوبل.

تولستوي أثناء خدمته العسكرية / ١٨٥٤ /

وفي العام نفسه – ١٨٥٢م – نشر أول جزء من ثلاثيته بعنوان الطفولة وذلك في العدد التاسع من مجلة المعاصر؛ حيث كانت صحافة أوربا في القرن التاسع عشر تقوم على تقليد شائع يتمثل في نشر روايات متسلسلة على حلقات، وكان جمهور القراء يتابعون النص السردي وتطورات حوادثه بالشوق نفسه أو أكثر الذي يتابعون به الحدث السياسي الجاري، ويتشاغلون بالنقاش في هذا كانشغالهم بالنقاش في ذاك.

وبعد أن نشر الجزء الأول من ثلاثيته بدأ نجمه يسطع في سماء الأدب والفن، وبدأ كثيرٌ من النقاد يتنبئون له بمستقبل فني باهر، وأنه سيكون واحدًا من أعظم كتاب النثر.

وشجع تولستوي ما لاقاه من قبول لدي جماهير النقاد والقراء؛ فكتب في ذلك الوقت قصة الهجوم، وشرع أيضًا في كتابة رواية (ملاك روسي) والتي لم يكملها، وأغلب الظن أنه أراد أن ينتهي من الجزء الثاني من ثلاثيته والتي سماها «الصبى».

وكان تولستوي ناجحًا في عمله كضابط صف؛ فرقي إلى رتبة ملازم بعد مرور عامين على تعيينه ونقل إلى القرم، واستمر نجاح تولستوي في عمله فرقي بعد عامين آخرين إلى رتبة ملازم أول في الجندية وكان ذلك سنة ١٨٥٦م وقد أبدى بطولة حقيقية أثناء خوضه للمعارك؛ فقلِّد وسام (آنا) المنقوش عليه كلمة (للشجاعة) وميدالية (الدفاع عن سيفاستوبل) وميدالية (ذكرى حرب ١٨٥٣ – ١٨٥٦م)؛ إلا أنه شعر بعد ذلك أن عمله في الجندية يهدر من وقته الكثير؛ مما لا يعطيه فرصة للكتابة والإبداع؛ لذا نجده يستقيل من عمله في نفس العام الذي رقي فيه إلى رتبة ملازم أول.

وكانت فترة عمل تولستوي في الجندية فترة خصبة؛ حيث كتب فيها العديد من أعماله القيمة؛ فكتب الجزء الثالث من ثلاثيته والذي سماه بالشباب، وانتهى من كتابتها عام ١٨٥٦م، وكتب أيضًا في عام ١٨٥٣م قصة (ملاحظات مهدف بليارد)، وفي السنة نفسها أيضًا بدأ في كتابة رواية (القوزاق) والتي انتهى من كتابتها عام ١٨٦٢م.

وربما الذي شجعه على أن يقدم استقالته أنه سافر في عام ١٨٥٥م إلى بطرسبورغ ووجد حفاوة كبيرة في استقباله، وقابل هناك العديد من الشخصيات الأدبية البارزة، كما أنه كان يحب حضور الصالونات الأدبية والثقافية، وربما كانت روتينيات عمله تعوقه كثيرًا عن مواصلة مشواره الثقافي؛ لذا لم يتردد في تقديم استقالته والتفرغ للكتابة والإبداع.

تولستوي معلمًا لأبناء الفلاحين

بعد أن استقال تولستوي من عمله في الجيش، لم يقتصر فقط على كتاباته وإبداعاته التي أسهمت إسهامًا بالغًا في التنوير وتنمية الوعي؛ بل نجده يسعى إلى إنشاء مدرسة؛ وكان في إحدى أسفاره لبلاد أوربا قد أعجب بطريقة التعليم هناك؛ فعمل على نقلها ونشرها في بلاده؛

حيث لم تكن في بلاده طرق كافية لتعليم الأطفال اللهم إلا طريقة التلقين التي تعتمد على أن يردد الطالب أو المتعلم بعض النظريات التي لا يفقه منها شيئًا.

فضلًا عن ذلك نجد أن تولستوي ترك جامعة قازان؛ لأن طريقة التدريس فيها لم تعجبه، ولأنه وجد المعلمين فيها منشغلين بالقضايا التافهة -- كما سبق ذكره؛ وكل هاته الأمور لا شك دفعت تولستوي لأن ينشأ مدرسة وينفق عليها من ماله الخاص؛ كي يخرج أجيالًا تمتلك القدر الكافي من العلم ومن آلات التفكير. وبالفعل في سنة ١٨٥٩م أنشأ مدرسةً وسماها على اسم ضيعته التي يمتلكها في الريف «باسنايا -- بوليانا» وعمل فيها تولستوي معلمًا لأبناء الفلاحين.

وقد تركت فترة اشتغاله بالتربية والتعليم أثرًا واضحًا في إبداعاته التي أنتجها في هذه المرحلة من حياته كما سيتبين بعد ذلك في الفصول القادمة؛ ولكن على كلٍّ أخذ تولستوي يدعو إلى تصحيح طرق التعليم في بلاده ودعا إلى تعليم شامل وأعلن حربًا ضروسًا ضد القيم الاجتماعية السائدة وضد طغيان الدول والمجتمعات والكنائس وضد الوحشية والظلم والجهل والبغاء والنفاق والضعف.

تولستوي في الثلاثين من عمره

في سنة ١٨٦٠ كان تولستوي قد تخطّى الثانية والثلاثين من عمره، وفي هذه الأثناء كان قد حاز شيئًا ما من الشهرة بصفته كاتبًا وكان قد نشر ثلاثيته (الطفولة -- الصبا -- الشباب)، وحكايات سواستبول وقصتين أو ثلاث أقصر من تلك، وكانت أعماله كلها قد نالت استحسانًا كبيرًا وقبولًا من القرّاء والنقاد على حدٍّ سواء.

وكان تولستوي في ذلك الوقت على صلة صداقة مع أهم وأبرز الكُتّاب والمفكرين في عصره؛ حيث كانت تربطه صلة صداقة بـ (تورغينيف) و(تيكراسوف) و(غونشاروف) و(بانايف) و(بيزيمسكي) و(فيت).. وغيرهم من الشخصيات الهامة. وقد أدهشت كتاباته كل واحد منهم لما فيها من مذاق طازج ولحدتها القاطعة وقوتها الوصفية الباهرة وما في صورها من دقة وأصالة.

وأحيانًا أُنتقِد أسلوبه ووُسِم بأنه أخرق بربري؛ بل وحشي؛ لكنه بالرغم من كل ذلك كان واحدًا من أعظم الكتاب الشبان في عصره؛ فقد تنبأ له الجميع بمستقبل باهر، ولكن الغيرة والحسد ولدت تحفظات تجاهه منه قبل أصدقائه.

وتولستوي في الثلاثين من عمره كما رآه الناقد المشهور بونكين: «**إنني ألتقي معه كثيرًا، وقليلًا ما أفهمه كما في السابق إنه طبيعة عجيبة مدللة حماسية، وهي طبيعة لا تروق للحياة مع الناس الآخرين، إنه مليء بمختلف المؤلفات والنظريا ت**».

وفي هذا السن – الثلاثينيات – شرع تولستوي يكثّف زيارته واهتمامه بالصالونات الأدبية والثقافية سواء منها الصالونات اليسارية أو اليمينية؛ ولكنه في النهاية لم يَبْد مرتاحًا لأي منها؛ فتركها وأخذ يفكّر في مشاريعه الأدبية الرائعة.

من صفات تولستوي

بالرغم من أن تولستوي قد تربّى ونشأ في طبقة النبلاء الثرية إلا أنه لم يرث مساوئ هذه الطبقة وعيوبها؛ بل كان ينقم كثيرًا على تصرّفات الكثير من النبلاء، وكانت أهم سمة تنماز بها شخصية تولستوي هي كبرياء النفس، وهذا الكبرياء النفسي بخلاف التكبّر؛ فشتّان بينهما؛ فتولستوي كان يسعى إلى المساواة، فكيف يكون إذن متكبّرًا!!

وشخصية تولستوي لا يستطاع لها فهمًا تامًّا إلا إذا أخذنا بالحسبان دور كبرياء النفس داخله، وكبرياء النفس فيه لا تنفصل أبدًا عن كبرياء الدّم والنشأة.

وثاني الصفات الحسنة التي تنماز بها شخصية تولستوي هي قول الصدق والحق؛ فكان لا يخشى شيئًا في سبيل قول، وسيظهر ذلك جليًّا حين نتعرف على رأيه في الإسلام، والرسول محمد ﷺ. ويظهر ذلك أيضًا من خلال نقده لمجتمعه وأبناء طبقته، ونقده أيضًا للاهوت الديني المسيحي، وتعصبه لقول الحق هنا يشبه (السيست) بطل موليير في مسرحية (كاره البشر) السيست الذي يصير كارهًا للبشر بالضبط؛ لأنه يعلم من خلال التجربة ومحنة الصلات الاجتماعية أن الحقيقة والصدق نادرًا ما يجتمعان أو هما يفعلان ذلك في حالة من الصراع والنزاع.

وثالث السمات التي تتميز بها شخصية تولستوي هي أنه لم يكن أنانيًّا، ولو كان كذلك لما دعا إلى المساواة بين الناس ولما ساهم بأعماله وكتاباته في تحرير الأقنان، ولما كان أنشأ مدرسة وأخذ يعلم فيها أبناء الفلاحين وغيرهم من الفقراء المعدمين؛ فالحقيقة عند تولستوي قابلة على الاكتشاف دائمًا ومتابعتها تقتضي أن يكون المرء طيبًا متناغمًا في أعماق نفسه سليمًا في طويته.

بالإضافة إلى ذلك فإن شخصية تولستوي يحكمها عقل ثائر لا يهدأ أبدًا ولا يقبل الأشياء على أنها حقائق مسلم بها لا تقبل النقد والتمحيص؛ ومن ذلك هجره لجامعة قازان؛ لأنه استقر في فكره أن أساتذته لم يكونوا من الكفاءة على مستوى عالٍ كما أنهم كانوا يتعاملون بالتافه من القضايا، ويحكمه أيضًا ذوق رفيع، ونفس طموحة تعشق التغيير للأفضل دائمًا.

كما أنه كان متواضعًا..

كما أنه كان متواضعًا يساعد أهل بيته في عملهم مهما كان هذا العمل. ويؤكد ذلك أنه في صيف ١٨٨٦م كتبت صوفيا زوجة تولستوي من ضيعته ياسنايا بوليانا إلى (ن. ن. ستراخوف) بأنه قد حلَّ عندهم موسم الحصاد والجميع يشارك فيه حتى تولستوي نفسه يحصد معهم ويساعدهم.

كما حمل (ريبن) - أحد أصدقاء تولستوي - بعد زيارته الأولى لضيعة تولستوي انطباعًا مدهشًا عن حب تولستوي للعمل والحياة فيقول: «**إن ليف تولستوي شغوف بشكل غريب وحار وجدي بكافة الأعمال. كنت شاهدًا على عمله الذي لا يكلّ منه في الحقول. كان يروح ويجيء في الحقل منذ الساعة الواحدة ظهرًا حتى الساعة الثامنة والنصف مساءً بلا كلل وهو يوجه المحراث خلف الأحصنة، وهو يشد على نفسه نطاقًا آخر مربوطًا إلى نطاقه. وأمام الحصان بمسلقة يحرث ويشق الأرض، والعرق يتصبب منه قطرات. أما ثوبه الخيش السميك الذي يرتديه لأعمال الحقل؛ فكان مبللًا تمامًا، وهو يتابع عمله بهدوء. لم يكن الحقل مستويًا، فكان عليه إما أن يصعد الهضبة، أو أن يهبط منها بالمحراث بحذر؛ حتى لا يصيب بسكة المحراث حوافر الخيل الخلفية. وفي أسفل الوادي كانت زجاجة نبيذ أبيض ملفوفة بمعطف الكونت لحمايتها من الشمس وكان أحيانًا يجرع الكونت تولستوي منها بعض جرعات ويعود سريعًا إلى عمله. وكثيرًا ما كان يعبر بوجهه المصفرّ وخصلات شعره المبلّلة بالعرق اللاصق على جبينه وبصدغيه، وخديه يعبر عن توتر وإرهاق شديد. وفي كل مرة كان يصل إليّ كان يلقي بنظراته المرحبة السعيدة ويلقي بكلمة مازحة...**»

أما عن طبع تولستوي فإن طبعه كان طبعًا محافظًا عميق المحافظة يتخلله خيط من الهوى واللا معقولية ولكن عقله ظل هادئًا ومنطقيًّا وثابت النظرة وكان يتابع القضية التي يكون بصددها متابعةً هينةً لا يخشى شيئًا، يتابعها حتى أقصى ما يمكن أن تؤدي إليه من نهاية ثم يحتضنها – وجماع هذه الصفات إنما هو خصيصة إنسانية عظيمة.

ومن الجدير بالذكر أن ننبه إلى شرود تولستوي المستمر وكأنه يعيش في عالم غير العالم؛ فكان دائمًا يبدو كإنسان يفكّر بعيدًا خارج المحيط الذي يعيش فيه، هذا المحيط الذي لا يعيره تولستوي أدنى اهتمام. وربما كانت الفتيات القازانيات يضحكن من خجل تولستوي وشروده الكثير حتى أثناء حضور الحفلات الصاخبة؛ فقد كتبت عنه إحدى الفتيات «**كان ليف نيكولا يفتش دائم الشرود في الحفلات ويرقص بدون رغبة في ذلك، كان يبدو دائمًا كإنسان يفكّر بعيدًا خارج محيطه، وكان يعتبر لشروده هذا شابًّا مملًّا من قبل الفتيات، حتى إنه لم يخطر في بال أية واحدة منا أن هذا الشاب الناعس سيصبح عبقريًّا لا مثيل له في أوربا كلها**».

فقد كان تولستوي الشاب منشغلًا في كل أوقاته بالتفكير في أكبر القضايا الفلسفية ومنها قضية الحياة والوجود.

تولستوي لا يأكل اللحم

وتولستوي في أخريات حياته زهد في الحياة زهدًا كبيرًا رفيعًا؛ لدرجة أنه منع نفسه أكل اللحوم في السنوات الأخيرة من حياته ما بين عامي ١٨٨٥-١٩١٠م فلقد عاش ربع قرن نباتيًا، وهي السنوات الخمس والعشرون الأخيرة من حياته، وحاول الإقلاع عن التدخين، وحقق ذلك، وكذلك حرّم تعاطي المشروبات الكحولية وكتب في هذا المضمون في أكثر من

مكان.. وبدأ يلبس الخيش والثياب الخشنة، وتتوق نفسه في كل وقت إلى الانعزال عن الآخرين في كوخٍ لا يعرفه أحد.

فتولستوي في أخريات حياته حاول أن يعيش كما عاش سابقًا السيّد المسيح، حاول أن يقترب من الكمال، وأن يعلم الناس بالكلمة وبالقدوة، واستند في تعاليمه إلى تعاليم السيّد المسيح، التي تتوجه إلى قلب الإنسان وعواطفه ومشاعره وإلى ا لجانب الروحي في الإنسان أكثر من توجهها إلى الجانب المادي. حاول تولستوي أن يكون كالمسيح، ولكن في القرن العشرين

تولستوي داعية السلام

لقد أدان تولستوي الحرب وجرائم القتل، حيث عاش في القوقاز في بداية الخمسينيات، وانخرط في السلك العسكري. واشترك في مجموعة من المعارك التي قدمت مادةً جيدةً لمؤلفاته، مثل «سيباستوبول في شهر كانون الأول» (١٨٥٥م)، و«سيباستوبول في أيار» (١٨٥٥م) و«سيباستوبول في آب» (١٨٥٦م)، «القوزاق» (١٨٦٣م) «الغارة» (١٨٥٣م) و «قطع أشجار الغابات» (١٨٥٥م) وراويته الخالدة «الحرب والسلام» (١٨٦٣-١٨٦٩م).

كتب ليف تولستوي في مطلع حياته الأدبية في قصته «المراهقة» (١٨٥٤) بلسان نيكولينكا- بطل القصة حول الحرب: «هل يعقل أنّك أنت حاربت- سألت بدهشة- هل يعقل أنك أنت أيضًا قتلت الناس؟ سأل نيكولينكا باستغرابٍ كارل إيفانوفتش» (٩٤ص٢٧) . انتقل تولستوي في عام ١٨٥٤ إلى جيش دوناي، ومن ثم إلى سيباستوبول، المحاصرة من قبل الجيوش الفرنسية والإنكليزية. واشترك ليف تولستوي في هذه المعارك وكان في الموقع الرابع، أكثر المواقع خطورة. كما أدان تولستوي الحرب الدفاعية والهجومية،

وتبلورت هذه الأفكار، خصوصًا، في السبعينيات، لكن بذورها كانت موجودةً في أدب تولستوي منذ أيامه الأولى.

قيل عن تولستوي

كتب نيكراسوف إلى بوتكين في يوم من الأيام بعد لقائه الأول مع تولستوي (لقد حضر [ل .ن . ت] أقصد تولستوي إنه إنسان لطيف ذكي وأنا بطيب خاطر أقول، لقد أعلن تولستوي منذ وصوله من محطة القطارات إلى منزل «تورغينيف» عن رغبته باللقاء معي لقد قضينا ذلك اليوم سوية وتحدّثنا كثيرًا. إنه شاب أصيل لطيف نشيط، صقر، ويمكن أن يكون نسرًا ويبدو لي أنه أرفع مستوى من كتاباته مع أنها جيدة.. ليس جميلًا، لكن لديه وجه جذاب وحيوي، وبنفس الوقت لديه الليونة، والأصالة الروحية التي تظهر واضحة عليه لقد أحببته جدًا وقد وعدني أن يجلس ويكتب للعدد الأول من (المعاصر).

وكتبت أيضًا إحدى قريباته وتدعى (آ. آ. تولستايا): أراه في ذاكرتي بوضوح تام عندما عاد من سيفاستوبل عام ١٨٥٥م كضابط مدفعية شاب، وأتذكر كل انطباع لطيف تركه على الجميع بحضوره. وكان آنذاك معروفًا من قبل الجمهور، وكانت قصته (الطفولة) قد ظهرت عام ١٨٥٢م. وكان الجميع معجبين بهذا الإبداع الرائع، أما نحن فكنا نفتخر به بموهبة قريبنا مع أننا لم نتصور شهرته في المستقبل ستكون بهذا الحجم الكبير. وكان تولستوي بسيطًا ومتواضعًا بشكل غير اعتيادي، وكان مزاحًا ويبعث الحياة لدى الجميع بحضوره، ولا يتكلم عن نفسه إلا القليل، لكنه كان ينظر إلى كل وجه جديد بانتباهٍ خاص، وبعد ذلك يتحدث بشكلٍ ساخرٍ مضحكٍ عن انطباعاته التي كانت دائمًا تحمل طابع التطرّف، وكان لقبه (ذو الجلد الرقيق) الذي أطلقته عليه فيما بعد زوجته صوفيا أندريفنا يليق به تمامًا؛ إذ سرعان ما

كانت تظهر عليه آثار أي مسحة جديدة استبدلها في داخله خاسرًا أم رابحًا. وكان يبصر للناس بغريزته التمثيلية وكانت تقديراته للأمور مصيبة في أكثر الأحيان بشكلٍ مدهش. أما وجهه فلم يكن جميلًا، لكن عيونه الذكية الطيبة المعبرة كانت البديل الجمالي، ويمكن القول إن ذلك كان أفضل من الجمال... لقد أحببناه كثيرًا حتى إننا كنا نستقبله بسعادة وحيوية فائقة....)

الصداقة في حياة تولستوي

من المعروف عن تولستوي أنه كان عنيدًا في أفكاره، متمسكًا برأيه ما دام لم يتبين له خطؤه، وكان في بعض الأحيان وحشيًّا على نحو غير متوقع وخاصةً في فترة شبابه، ونتيجة كل ذلك أن انفضّ أصدقاؤه من حوله وأخذوا يعاملونه باحترام عصبي، ولعل تولستوي هو الذي هجر أصدقاءه؛ لما رآه من حقد وحسد في أعينهم تجاهه؛ ففيما عدا الشاعر «فيت» الذي كان نفسه رجلًا محترمًا من رجال الريف على شيء من الغرابة وشيء كثير عميق من الروح المحافظة؛ فيما عدا هذه الشخصية كنت بالكاد تجد صديقًا لتولستوي من بين الكتاب من أبناء جيله.

وقطع تولستوي أيضًا صلاته مع تورغينيف، وهو أمرٌ بالغ الشهرة، وكان على بُعد أعظم عن رجال الأدب الآخرين، وكانت هناك أوقات تعلَّق فيها بفاسيلي بوتكين وكان يحب نكراسوف أكثر من حُبّه لشعره؛ ولكن من جهة أخرى كان نكراسوف ناشرًا عبقريًّا وقد أعجب به وشجّعه منذ بدايات أعماله (أي أعمال تولستوي).

وبالرغم من أنه خاض غمار صراع فكري عنيف مع أصدقائه إلا أنهم شهدوا له بالموهبة وخاصةً تورغينيف الذي كتب إلى شقيقة تولستوي (ماريا) عن الانطباعات التي أحدثتها قصة الصبا عند مجتمع القراء: (**لقد أصبح ليف نيكولا يفيتش برأي الكثيرين في صف أفضل كتابنا.. وعليه أن يكتب شيئًا آخر بهذا الشكل؛ ليحتل المكان الأول الذي يستحقه، وينتظره**) وليس تورغينيف وحده من شهد لتولستوي بهذا الأمر، فقد كتب نيكراسوف إلى تولستوي أيضًا ورأى فيه أملًا عظيمًا

الأديب الروسي غوغل

للأدب الروسي. من هنا فإن معاصري تولستوي الثاقبي النظرة قد توقّعوا له بمستقبلٍ عظيمٍ من خلال أعماله الأولى، وقالوا: إن الأدب الروسي رفد بموهوب كبير هو تولستوي الذي سيتربّع عن قريب على عرش الأدب الروسي الذي ظنّ الجميع أنه انهار بموت غوغل (١٨٠٩ - ١٨٥٢)*.

وقد وصف تولستوي علاقاته بأصدقائه «**لقد خدعتُ نفسي طويلًا متصوّرًا أنني أملك الأصدقاء وأن لي أناسًا يفهمونني.. هراء! لم ألتق حتى هذا الوقت إنسان واحد ذي أخلاق حميدة مثلي، وأنا الذي لا أذكر أن مرَّ حدثٌ في حياتي لم أولع به بطيبة قلب ولم أكن جاهزًا للتضحية من أجله بكل شيء**».

* نيقولاي فاسيليفتش غوغول كاتب روسي يُعد من آباء الأدب الروسي. وُلد في في الأول من أبريل ١٨٠٩م، وتوفي في ٤ مارس ١٨٥٢م. من أعماله الأكثر شهرة رواية النفوس الميتة وقصته القصيرة المعطف، بالإضافة إلى المسرحيتين الكوميديتين "المفتش العام" و"خطوبة".

وبقدر ما كان هؤلاء الأصدقاء هم المجتمع فإن تولستوي يضع عليه علامة سلبية يقول «**ولهذا لا أعرف مجتمعًا لم أقاس منه أنني أشعر دائمًا أنهم يأخذون تعابير أفكاري القلبيّة بمأخذ الكذب، وهم لا يستطيعون أن يتصوّروا أنها لا تراعي مصالحي الشخصية**».

غير أن خيبة الأمل في الأصدقاء والمجتمع لم تحمل تولستوي آنذاك أو فيما بعد إلى حالة الوحدة المتكبرة. ومعروف أن أول صفحة من صفحات يوميات الشباب؛ خصصها تولستوي لموضوع الفرد والمجتمع.

زواج تولستوي

وكان هجران تولستوي لأصدقائه أو هجرانهم له ربما كان دافعًا له؛ كي يبحث عن الارتباط والزوج بمن تشجعه على الكتابة والإبداع، وبالفعل في عام ١٨٦٢م، تزوج تولستوي من «صوفيا أندريفينا» وعاشا حياة سعيدة؛ حيث تزوجّا بعد قصة حب وكانت صوفيا في السابعة عشرة من عمرها، وتولستوي في الرابعة والثلاثين، وقد أنجبا ثلاثة عشر طفلًا، مات منهم ثلاثة.

كانت صوفيا متعلّمة ومثقفة؛ إذ تخرجت في جامعة مرموقة، إضافة إلى إجادتها عدة لغات غير الروسية، شأنها في ذلك شأن بنات الطبقات الأرستقراطية، فقد كانت تجيد الفرنسية والألمانية والإيطالية والإنجليزية، وكان يقول عنها تولستوي أنها «زوجة مثالية».

وقبل زواجها نشرت بعض الكتب الأدبية من تأليفها، وبعد زواجها استخدمت إمكاناتها الثقافية في مساعدة زوجها، الذي قال عنها إنها «الزوجة المناسبة تمامًا للكاتب». فقد كان يملي عليها مؤلفاته، وكانت تبذل الكثير من الجهد لنسخ مسوّداته وإعدادها للنشر، وكان تولستوي يستشيرها في تصويره لبعض شخصياته النسائية، فكانت تقدم له ملاحظاتها الدقيقة التي استفاد منها في رواياته المختلفة.

وكانت «تاتيانا أندرييفنا بيرز» أخت صوفيا زوجة تولستوي تعيش معهما في ياسنايابوليانا ضيعة تولستوي، وكانت في السادسة عشرة من عمرها حين تزوّج تولستوي بأختها.

وكانت فتاة مرحة جذابة، وكان تولستوي معتادًا على أن يقول لها: إنها تدفع أجرة مقامها بكونها تجلس أمامه كنموذج لأدبه، وبعد أن تزوجت استمرت في زيارة أسرة تولستوي جالبةً معها أسرتها؛ لتحل ضيفةً عليهم في أشهر الصيف.

وكانت تاتيانا شديدة التعلق بتولستوي تحبه كثيرًا وتحبُّ ضيعته ياسنايا بوليانا التي تقع في الريف؛ حتى إنه بعد أن توفي زوجها سنة ١٩١٧م ذهبت لكي تعيش مع ابنة تولستوي الكساندرا، وكتبت كتابًا عن تولستوي سمته بعنوان (تولستوي كما عرفته).

وكان تولستوي قد استمد من شخصية «تاتيانا» نموذجًا رئيسيًّا لشخصية ناتاشا في رائعته الحرب والسلام.

مفارقات في حياة تولستوي

ومن المفارقات الهامة في حياة تولستوي أنه ولد نبيلًا، وظل أرستقراطيًّا في مزاجه حتى بعد أن اعتنق قضية الإنسان العادي وشرع في الإشادة بالفلاح الروسي مؤثرًا إياه على كل الطبقات وكل أنواع الكائنات البشرية. وقد اقتضى لرجل من العامة وإنسان بروليتاري هو «ماكسيم غوركي» أن يحذر أنه حتى الندبة الروحية في تحول تولستوي الديني لم تستطع أن تخنق فيه الإحساس إلا شعوري بأنه ينتمي إلى سلالة السادة؛ فتولستوي بالرغم من أنه قد عاش مثل أي رجل من عامة الشعب وارتدى ما يرتديه ورفض أن يخاطب بلقب الكونت إلا أنه ظلت في أعماقه روح الكبرياء الإنساني.

وثاني المفارقات في حياة تولستوي تكمن في أن كلًّا من ولادته ومزاجه جعلا منه محافظًا بينما كان عقله وإيمانه قد حولاه إلى شخص راديكالي. فقد كان تولستوي راديكاليًّا أخلاقيًّا لا راديكاليًّا اجتماعيًّا، وتلك حقيقة لم تكن واضحة تمام الوضوح لدى أتباعه ومريديه، ولكنها في الوقت نفسه حقيقة لم تخف عن ملاحظة «لينين» المفعمة بالصحو. فلقد آمن لينين بأن تفكير تولستوي ووعظه كانا أبوين تسلطيين في طبيعتهما ورجعيين في روحهما.

ويمكننا أن نقول إن تولستوي كان أقرب مشابهة بالسيد الإقطاعي الذي استبدل السيف بالصليب بينما كان محافظًا على طبيعته المتعالية تحت مسوح الراهب. والتغيير الوحيد الذي كان يراه تولستوي مهمًّا وممكنًا وضروريًّا هو تغيير القلب، وقد مرَّ هو نفسه بمثل هذا التغيير، وأحس أن الناس من حوله قادرون على أن يفعلوا ما فعله، وكان راغبًا؛ بل كان توّاقًا في أن يساعدهم في الوصول إلى تلك الغاية التي وصل إليها.

فما كان يعظ به تولستوي دائمًا هو أن الآخرين ينبغي عليهم أن يغيروا أنفسهم أو يحولوها مثلما حولها هو (أي يهتدوا).

وكان تولستوي يرى دائمًا أن كل إنسان يستطيع إلى الأبد أن يشعر مثلما شعر قسطنطين ليفين، وهو أحد أبطاله الأثيرين لديه، ففي لحظة معينة من تجربته الشخصية الخاصة يقول: **«لقد أحس أنه هو نفسه ولم يرد أن يكون أي كائن آخر وكل ما أراده هو أن يكون أفضل مما كان من قبل»** ويبدو أن هاته الكلمات تبرهن على أن تولستوي لم يعتقد جديًا بأن الطبيعة البشرية يمكن لها أن تتغير تغييرًا جوهريًا.

تولستوي مع أسرته وأثناء العمل

تولستوي ومعارضة الكنيسة

ولم يكن بإمكان تولستوي المفكر والمحص الذي تعوّد أن يهضم ما يقرأه أو يسمعه هضمًا جيدًا – أن يتقبل أفكار وآراء الكنيسة على علّاتها والتي طلبت منه أن يلغي عقله؛ لذا تعمق تولستوي في القراءات الدينية، وقاوم الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا، ودعا للسلام وعدم الاستغلال، وعارض القوة والعنف في شتى صورهما.

ولم تقبل الكنيسة آراء تولستوي التي انتشرت في سرعة كبيرة؛ فكفّرته وأبعدته عنها وأعلنت حرمانه من رعايتها. لقرار المجمع المقدس بحرمان ليف تولستوي من الكنيسة الذي صدر في ٢٠ شباط عام ١٩٠١ والذي نشر في جريدة «أخبار الكنيسة» وجاء في القرار: «...**وفي أيامنا هذه ظهر معلمٌ كاذب هو الكونت تولستوي... وقد أنكر علانية أمام الجميع أمّه الكنيسة الأرثوذكسية التي هذّبته وثقّفته وكرّس جميع مواهبه وقواه العلمية لنشر التعاليم المضادة للمسيح والكنيسة؛ ليزيل من عقول الناس وقلوبهم إيمان آبائهم.... وهو ينكر الله الحي في الثالوث الأقدس الممجد خالق وضابط المسكونة، وينكر الرب يسوع المسيح الإله والإنسان.... ولا يعتقد بالحياة بعد الموت ولا بالعقاب والثواب**»

ووقّع على القرار كل من المطارنة: مطران بطرسبورغ ومطران كييف ومطران موسكو ومطران وارسو وغيرهم.

أمّا عن ردة الفعل التي أحدثها القرار المذكور؛ فلقد قامت المظاهرات وطالب الكثيرون من أتباع تولستوي المجمع المقدس بحرمانهم معه. أمّا الكثير من الشعب فوقف مع المجمع المقدس وضد تولستوي ولذلك فلقد أرسلت زوجة الكاتب الروسي رسالةً إلى مطران بطرسبورج بصفته رئيس المجمع المقدس قالت فيها مدافعة عن زوجها: «.....**أما إذا**

كان القصد من حرمان ليف نيكولايفتش تنفير الناس منه واستمالتهم عنه، فهو خطأ واضح؛ لأن جميع الناس زادوا تعلّقًا به وميلًا إليه وسخطوا من هذا الحرم، ولا تزال تردنا الشواهد على ذلك من جميع أقطار العالم».

واستنكرت صوفيا أندريفنا زوجة تولستوي القرار السري الذي أصدره المجمع المقدس والذي يمنع الكهنة من الصلاة على جثة تولستوي بعد مماته ويمنع دفنه بموجب طقوس الكنيسة. وأجابها مطران بطرسبورج بما يلي: «.... **ولذلك نقدر أن نقول كلمة «واحدة» عمن ينكر المسيح وهو أنّه ينتقل من الحياة إلى الموت وعلى ذلك يتوقف هلاك زوجك....** ».

ويرى المطران المذكور أن تولستوي نفسه لا يريد أن يدفن بحسب الديانة المسيحية. وردَّ ليف تولستوي على قرار المجمع المقدس؛ لأنّه استلم مجموعة من الرسائل تهدده بالقتل. فكتب له أحد الناس: «**ستموت الآن كالكلب....**». وكتب له آخرون بأن على الحكومة زجّك في السجن وإن لم تفعل ذلك؛ فنحن نجبرك على السكوت. ويكتب تولستوي أنّه خرج إلى الساحة العامة في موسكو في الخامس والعشرين من شهر شباط، وهو اليوم الذي أذاع به المجمع المقدس قرار الحرمان فاستقبله الجمهور باللعنات والشتائم، وضربه بعضهم.

ولا ينكر تولستوي في ردِّه على المجمع المقدس أنّ الكنيسة أخفت إخفاءً تامًّا جوهر التعليم المسيحي. ويذكر تولستوي أنّه كتب لجميع أقاربه؛ لكي يطرحوا جثته الجامدة بعد موته بدون أن يصلي عليها أحد كما يطرحون الشيء الفاسد الذي لا لزوم له لكي لا يزعج الناس بوجوده.

وقد أُعجب بآرائه عدد كبير من الناس وكانوا يزورونه في مقرّه بعد أن عاش حياة المزارعين البسطاء تاركًا عائلته الثرية المترفة. وهو كفيلسوف أخلاقي اعتنق أفكار المقاومة

السلمية النابذة للعنف وتبلور ذلك في كتاب «مملكة الرب بداخلك» وهو العمل الذي أثّر على مشاهير القرن العشرين مثل المهاتما غاندي ومارتن لوثر كينج في جهادهما الذي اتسم بسياسة المقاومة السلمية النابذة للعنف.

أساتذة أثروا في تولستوي

كان هناك مجموعة من الأساتذة والعلماء والأدباء تركوا أثرًا واضحًا في حياة تولستوي العقلية وفي أدبه وفكره؛ فمن معلميه ستيرن، وبرناردان دوسان بيير، وفرانكلين، وبوفون، وغولد سميث. والجزء الأول من ثلاثيته (الطفولة) يعكس لنا تأثير «تويفر» عليه الذي نشأ في ذلك القرن الثامن عشر، أما في كتابه صور أولية من سواستبول؛ فقد تأثر فيه تولستوي بستندال الذي يعد آخر أهم شخصية من رجال القرن الثامن عشر.

تأثّر تولستوي بكل هاته الأسماء اللامعة إلا أن تأثره بـ«جان جاك روسو» قد فاق كل تأثّر آخر؛ فقد أحبّ آراء روسو وأعجب بها أكثر مما فعل تجاه آراء أي كاتب آخر، وهو مثل روسو رفض عقيدة الخطيئة الأولى، وآمن بأن الإنسان قد ولد بريئًا ولكن ما دمره هو مؤسساته السيئة ولا سيما تلك التي تدعى بمؤسسات التعليم بين الناس المتحضرين. وهو مثل روسو أيضًا في وضعه اللوم بسبب هذه العملية من الانحطاط على المثقفين بالدرجة الأولى وعلى المؤسسات التي يسندونها، ولا سيما تلك النخبة من الخبراء والزُّمرة المعقّدة وهم بعيدون عن الإنسانية العامة، ومتغربون عن الحياة الطبيعية.

وهؤلاء الناس في نظره ونظر تولستوي ملعونون؛ لأنهم افتقدوا أثمن كل الممتلكات البشرية؛ القدرة التي يولد الناس جميعًا بها، وهي أن يروا الحقيقة التي لا تتزحزح، الحقيقة الخالدة التي يصورها المشعوذون والسوفسطائيون وحدهم على أنها تتغير بتغير الظروف والأحوال والأزمان والأمكنة، الحقيقة التي لا يراها رؤيةً تامةً سوى الأبرياء أولئك الذين لم

تفسد عيونهم ولا قلوبهم.. يراها الأطفال والفلاحون، أي أولئك الـذين لم يعمهـم الغـرور الكاذب ولا الكبرياء، ويراها البسطاء والطيّبون، كذلك نقية صافية من كل كدر.

تولستوي يخترق..

(الشهرة وذيوع الصيت)

استطاع تولستوي أن يحقق بما تركه من كتابات ومقالات وأعمال إبداعية ومؤلفات في مختلف نواحي الفكر والحياة – شهرة واسعةً لا مثيل لها، وقلَّما يقيدها الحظ لكاتب أو فنان. بل إن الصواب لا يجانبنا إذا قلنا إن تولستوي استطاع بأعماله وآرائه أن يخترق موطنه روسيا إلى عقول وقلوب قراء العالم أجمع، ويمكن أن يتجلى لنا ذلك إذا عرفنا أن عدد الرسائل التي أُرسلت إلى تولستوي في ضيعته ياسنايا بوليانا من قبل الكتاب الروس والأجانب يتجاوز خمسين ألف رسالة (٥٠٠٠٠ رسالة) وتوجد في أرشيف تولستوي الآن ما يقرب من عشرة آلاف رسالة (١٠٠٠٠ رسالة) كتبها تولستوي إلى شخصيات مختلفة.

وتولستوي نفسه أحس بهذه الشهرة العارمة وخاصةً في أعوامه العشرة الأخيرة؛ لذا صرح بأنه يجب عليه أن يسعى للعمل والإبداع بجد من أجل الملايين من الناس في مختلف بقاع الأرض. كما أنه سمى أعماله الفنية والصحفية بـ (رسائل جامعة)؛ لأنها في حقيقتها موجّهة إلى ملايين القراء؛ لذلك كان جديرًا بأن يلقّب من قبل الأمريكيين بـ (مواطن العالم).

وكذلك اختتم رومان رولان كتابه (حياة تولستوي) عام ١٩١١م بقوله: (لم يتوجّه تولستوي بحديثه أبدًا إلى المفكرين الكبار؛ بل كان يحدث من أجل الناس البسطاء) لذا ليس بعجيب أن يتلهّف الناس على كتابات تولستوي، وتغدو ضيعته ياسنايا بوليانا مزارًا للملايين من الناس.

وأرى أنه لزامًا علينا أن نعرض بعض الرسائل العربية التي أرسلت إلى تولستوي من العلماء، الكتاب والمبدعين العرب؛ لندلل بها على مدى ذيوع تولستوي في العالم العربي.

رسائل العرب إلى تولستوي

وقد بدأت هذه الرسائل تصل إلى تولستوي من الأدباء والكُتّاب العرب الذين اهتموا بشخصية تولستوي وكتاباته – منذ عام ١٩٠١م وكان تولستوي قد أجاب على معظمها وأبدى تعاطفه مع أصحابها.

١ – رسائل الإمام محمد عبده إلى تولستوي:

وكان الإمام العلم الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ – ١٩٠٥م) مفتي الديار المصرية ورئيس جامعة الأزهر من الذين اهتموا بشخصية تولستوي وبكتاباته وأفكاره، وهو في الحقيقة يُعد أول الكتاب العرب الذين تبادلوا الرسائل مع تولستوي (١٨٢٨ – ١٩١٠م). وكانت مناسبة رسائل الإمام علمه بحرم المجمع الكنسي المقدس لتولستوي عام ١٩٠١، من الكنيسة لنقده لها بوجهٍ عامٍ في مؤلفاته العديدة، وبوجهٍ خاصٍ في روايته «البعث»، التي صدرت في عام ١٨٩٩م. لذا كتب الشيخ محمد عبده رسالةً لتولستوي بتاريخ ١٨ نيسان عام ١٩٠٤، ويرى النّقاد السوفييت، الذين أعدّوا المؤلفات الكاملة لتولستوي، والتي بلغ مجموعها تسعين مجلدًا، أنّ رسائل المفكر العربي محمد عبده إلى تولستوي مفقودة، ويوجد لديهم جواب تولستوي على رسالة محمد عبده.

ومن خلال رسالة تولستوي الجوابية إلى محمد عبده يتوقّع النقّاد السوفييت أنّ رسالة محمد عبده تتعلّق بأمور الدين. كتب النقّاد السوفييت رأيهم هذا في شرحهم لرسالة تولستوي الجوابية لمحمد عبده. علمًا بأنّ رسالة الشيخ محمد عبده، إلى تولستوي محفوظة بخط محمد عبده وباللغة العربية في متحف تولستوي الأدبي في موسكو، وتحمل الرقم (٢٠٤/ ٥). ونشرت الرسالة المذكورة مع رسالة أخرى من محمد عبده إلى تولستوي في المجلد الثاني من الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده.

■ رسالة الإمام الأولى:

«أيها الحكيم الجليل موسيو تولستوي.. لم نحظ بمعرفة شخصك ولكننا لم نحرم التعارف مع روحك، سطع علينا نورٌ من أفكارك، وأشرقت في آفاقنا شموس من آرائك، أَلَّفت بين نفوس العقلاء ونفسك. هداك الله إلى معرفة سرَّ الفطرة التي فطر الناس عليها، ووقّفك على الغاية التي هدى البشر إليها؛ فأدركت أن الإنسان جاء إلى هذا الوجود؛ لينبت بالعلم ويثمر بالعمل ولأن تكون ثمرته تعبًا ترتاح به نفسك وسعيًا يبقى به ويربّي حسنه، وشعرت بالشقاء الذي نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة وبما استعملوا قواهم التي لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها فيما كدر راحتهم وزعزع طمأنينتهم.

نظرتَ نظرةً في الدين مزقتْ حُجُب التقاليد ووصلتَ بها إلى حقيقة التوحيد، ورفعتَ صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه، وتقدمت أمامهم بالعمل؛ لتحمل نفوسهم عليه؛ فكما كنت بقولك هاديًا للعقول كنت بعملك حاثًّا للعزائم والهمم. وكما كانت آراؤك ضياءً يهتدي بها الضالون كان مثالك في العمل إمامًا يقتدي به المسترشدون، وكما كان وجودك توبيخًا من الله للأغنياء كان مددًا من عنايته للضعفاء الفقراء، وإن أرفع مجد بلغته وأكبر جزاء نلته على متاعبك في النصح والإرشاد هو هذا الذي سماه الغافلون بالحرمان والإبعاد؛ فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين؛ فاحمد الله على أن فارقوك في أقوالهم كما كنت فارقتهم في عقائدهم وأعمالهم.. هذا وإن نفوسنا لشيّقة إلى ما يتجدد من آثار قلمك فيما تستقبل من أيام عمرك، وإنا نسأل الله أن يمدَّ في حياتك، ويحفظ عليك قواك، ويفتح أبواب القلوب؛ لفهم قولك ويسوق النفوس إلى التأسي بك في عملك والسلام».

الرسالة الثانية للإمام

- وهي لا تختلف كثيرًا عن الرسالة الأولى، ويخاطب فيها محمد عبده تولستوي قائلًا:

«أيّها الروح الذكي، صدرت من المقام العلي إلى العالم الأرضي، وتجسّدت فيما سموه بتولستوي، قوي فيك اتصال روحك بمبدئه، فلم تشغلك حاجات جسدك عما تسمو إليه نفسك..... وأدركت أنّ الإنسان خُلق ليتعلّم فيعلم فيعمل، ولم يخلق ليجهل ويكسل ويهمل».

رد تولستوي على الإمام محمد عبده

فلم تكد رسائل الإمام الشيخ محمد عبده تصل إلى تولستوي حتى أجاب عليها بقوله: «الآن استلمت رسالة المفتي واعترف لك بالجميل والامتنان؛ لأنك حملت لي هذه الرسالة. إنّ المفتي يمتدحني كثيرًا في رسالته على الطريقة الشرقية، ولذلك فإنّني أجد صعوبةً في الإجابة على هذه الرسالة، وإنّني مسرور جدًّا، بمعرفتي بهذا الإنسان اللطيف.. أيّها الصديق العزيز، لقد استلمت رسالتك الطيبة والمليئة بالمديح وأجيبك عليها مباشرةً لكي أؤكد لك بأنّني سررت بها كثيرًا، أعتقد، ولا أُخطئ في اعتقادي، وذلك من خلال قراءتي لرسالتك، أنّ العقيدة التي أؤمن بها هي نفسها العقيدة التي تؤمن بها نفسها، وتتلخص في الاعتراف بوجود الله وقوانينه».

وينهي ليف تولستوي رسالته بالتعبير عن المشاعر الصادقة تجاه الشيخ محمد عبده. ولكن مما يؤسف له أنّ الشيخ محمد عبده توفي في تموز عام ١٩٠٥م ولذلك لم تستمر هذه المراسلة بينه وبين تولستوي.

وتولستوي يرى في رسالة الإمام أنّ هناك ديانات كثيرةً ومختلفةً ولكن هناك عقيدةً واحدةً حقيقيةً، وهي تتلخص في الإيمان بالله الواحد وبمحبة الآخرين، وبمطالبة الناس بعمل الخير بعضهم لبعض، ويرى تولستوي أنّ جوهر الديانات الثلاث أيّ اليهودية والمسيحية والإسلامية واحد.

ويرى الكاتب الروسي ضرورة ابتعاد الديانات عن الطقوس الشكليّة لكي يستطيع أتباعها التقرب من بعض وعندما تبدأ المؤسسات الدينية بالبساطة، آنذاك تصل إلى توحيد قلوب المؤمنين.

وينهي ليف تولستوي رسالته بالتعبير عن المشاعر الصادقة تجاه الشيخ محمد عبده. ولكن مما يؤسف له أنّ الشيخ محمد عبده توفي في تموز عام ١٩٠٥م ولذلك لم تستمر هذه المراسلة بينه وبين تولستوي.

وتولستوي يرى في رسالة الإمام أنّ هناك ديانات كثيرةً ومختلفةً ولكن هناك عقيدةً واحدةً حقيقيةً، وهي تتلخص في الإيمان بالله الواحد وبمحبة الآخرين، وبمطالبة الناس بعمل الخير بعضهم لبعض، ويرى تولستوي أنّ جوهر الديانات الثلاث؛ أيّ اليهودية والمسيحية والإسلامية واحد.

ويرى الكاتب الروسي ضرورة ابتعاد الديانات عن الطقوس الشكلية لكي يستطيع أتباعها التقرّب من بعض، وعندما تبدأ المؤسسات الدينية بالبساطة، آنذاك تصل إلى توحيد قلوب المؤمنين.

٢- رسالة المنفلوطي إلى تولستوي

أرسل الأديب الكبير مصطفى لطفي المنفلوطي (١٨٧٦- ١٩٢٤م) رسالةً مفتوحةً إلى تولستوي في عام (١٩١٠م) بعد أن عرف من وسائل الإعلام أنّ تولستوي ترك منزله؛ ليعتزل الناس. فابتدأ رسالته هذه بقوله: «قف ساعةً واحدةً نودعك فيها قبل أن ترحل لطيتك، وتتخذ السبيل إلى دارعزلتك، فقد عشنا في كنفك على مابيننا وبينك من بعد الدار، وشط المزار، عهدًا طويلًا كنا فيه أصدقاءك، وإن لم نرك وأبناءك، وإن كان لنا آباء من دونك، وعزيز علينا أن تفارقنا قبل أن نقضي حق عشرتك بدمعةٍ نذرفها بين يديك في موقف الوداع».

- ثم يتحدث المنفلوطي في رسالته عن صراع تولستوي ضد القيصر:

«قلت لقيصر: «أيّها الملك، إنّك صنيعة الشعب وأجيره، لا إلهه ومعبوده، وإنّك في مقعدك فوق عرشك لا فرق بينك وبين ذلك الإكار في المزرعة وذلك العامل في المصنع، كلاكما مأجور على عملٍ يعمله، وكلاكما مأخوذ بإتقان ما يعمل، فكما أنّ صاحب المصنع يسأل العامل هل وفّى عمله ليوفي له أجره، كذلك يسألك الشعب: هل قمت بحماية القانون الذي وكّل إليك حراسته فأنفذته كما هو من غير تبديلٍ ولا تأويلٍ؟ هل عدلت بين الناس وآسيت بين قويهم وضعيفهم، وغنيهم وفقيرهم، وقريبهم وبعيدهم؟! وقلت للغرندوق الروسي: ليس من العدل أن تملك وحدك وأنت نائم في سريرك، بين روضك، ونسيمك وظلك ومائك- هذه الأرض التي تضمّ بين أقطارها مليون فدانٍ، ولا يملك أحدٌ من هؤلاء الملايين- الذين يفلّحونها ويحرثونها، ويبذرون بذورها ويستنبتون نباتها، ويسوقون ماشيتها، ويتقلّبون بين حرّها وبردها وأجيجها وثلجها -شبرًا واحدًا فيها، فاعرف لهم حقهم وأحسن القسمة بينك وبينهم، وأشعر قلبك الخجل من منظر شقائهم في سبيل سعادتك، وموتهم في سبيل حياتك....».

ويتحدث المنفلوطي بعد ذلك عن الحياة البسيطة التي كان تولستوي يعيشها فلقد كان يعمل في الحقل مع الفلاحين ويرتدي الملابس التي يرتدونها، ولكن الإقطاعيون لم يستمعوا إلى نصائحه ولم يتخذوا منه قدوة.

رسائل عامة القراء إلي تولستوي

ولم يقتصر الأمر على المشاهير من الكتاب والأدباء، وإنما امتدت رسائل عامة القراء إلى تولستوي وهذا نموذج بسيط منها:

أرسل جبرائيل ساس رسالة إلى تولستوي محتواها أنّه يتمنّى أن تصل رسالته إلى تولستوي، وهو بتمام الصحة والعافية ويطلب من الله الحفاظ على حياة تولستوي لحاجة

الفقراء إليه. فلقد أصبح الشعب الروسي عظيمًا، برأي جبرائيل، لاعتناقه المسيحية ولتخلصه من الوثنية، ويستطيع الشعب الروسي الآن التقدم بفضل تعاليم تولستوي، والجدير بالذكر أنّ هذه الرسالة محفوظة في متحف تولستوي الأدبي في موسكو، في قسم المخطوطات وتحمل الرقم ٦/ ٢٣٧.

وأرسلت أيضًا معلمة من القاهرة رسالة إلى تولستوي؛ تتمنى له الصحة وطول العمر.

وأرسل له أيضًا طالب مصري يطلب من كاتب الأرض الروسية العظيم نسخةً من رواية «آنا كارينينا»، مع الإهداء على الصفحة الأولى بخط تولستوي نفسه.

واستلم تولستوي رسالةً من فتاةٍ عربيةٍ سوريةٍ مؤرخةٍ بتاريخ ١٠ تشرين الأول عام ١٩٠٤، تطلب صاحبة الرسالة واسمها رمزية عويفني في رسالتها من تولستوي إرسال صورته لتعليقها في بيوت السوريين، الذين يحبونه ولنشرها في الجرائد والمجلات السورية.

وأجاب ليف تولستوي على رسالة الفتاة العربية السورية بتاريخ ١١ شباط عام ١٩٠٥، وسمع كثير من مواطني سوريا برسالة تولستوي ونشرت المجلات والصحف، الصادرة في دمشق في ذلك الوقت صورة تولستوي وبعد ذلك كتبت رمزية عويفني رسالتين إلى الكاتب الروسي وشكرته على طيبه وعلى تلبية طلبها.

وكتب أيضًا إلى ليف تولستوي أحد الناشرين العرب في ١٦ تموز عام ١٩٠٨ يطلب في رسالته الموافقة على ترجمة رواية «آنا كارينينا» ونشرها في القاهرة باللغة العربية، ورأى هذا الناشر أنّ رواية «آنا كارينينا» ستلاقي نجاحًا كبيرًا في المجتمع العربي؛ حيث لم تتمكّن أغلبية القراء العرب من التعرّف جيدًا على فن تولستوي الروائي. أجاب الكاتب الروسي على هذه الرسالة، بأنّه يسمح لجميع المترجمين والناشرين ترجمة ونشر مؤلّفاته دون مقابلٍ مادي، ويستطيع المترجمون في أيّ وقتٍ وفي أيّ مكانٍ نشر مؤلفاته دون موافقته.

آثار تولستوي وإبداعاته

ترك تولستوي مجموعة من الكتب والأعمال الإبداعية القيمة، وقد تناول في كتاباته الأدبية مواضيع أخلاقية ودينية واجتماعية، إن دلّت على شيءٍ فإنما تدل على فكره العميق، وكان أول إنتاجاته الأدبية هو ثلاثيته التي هي عبارة عن سيرة ذاتيه له على مراحل مختلفة من حياته وهي بعنوان (الطفولة -- الصبى – الشباب) وكان ذلك سنة ١٨٥٢م وهو في الرابعة والعشرين من عمره.

ثم توالت بعد ذلك أعماله وكتاباته الهامة التي سنعرض لها بشيء من التفصيل في الفصول القادمة لأهميتها؛ فكتب في عام ١٨٥٣م روايته «القوزاق» والتي انتهى من كتابتها عام ١٨٦٢م. وفي العام نفسه كتب أيضًا قصته «ملاحظات مهدف بليارد»، وبعدها بعامين كتب قصصه «سواستبول في كانون الأول» و «سواستبول في إيار» و «سواستبول في آب ١٨٥٥م».

وفي عام ١٨٥٦م كتب قصة «العاصفة الثلجية» وكتب بعدها قصة «ضابط في سلاح الفرسان»، وبعدها بعام واحد كتب أيضًا قصته «لوسيرن» وقصة «ألبيرت» التي انتهى من كتابتها في عام ١٨٥٨م. وبعد ذلك توالت أعماله مثل قصة (ثلاث ميتات)، وقصة (سعادة عائلية)، وشرع في كتابة روايته «الديمسبروبون» (غير تامة).

وكتب قصة (بوليكوشكا) والتي انتهى من كتابتها عام ١٨٦٢م. وكتب أيضًا قصة (ما الذي يحيا به الناس)، وقصة (موت إيفان إيليتش)، وقصة (الشيطان) التي نُشِرت بعد وفاته.

وفي عام ١٨٩٠م شرع في كتابة كتابه «الأب سيرجيوس»، وبعد ذلك كتب قصة كتب قصة السيد والرجل، وقصة «الحاج مراد»، وقصة «الجثة الحية» و «لا تقتل» «بعد حفلة رقص» «الكوبون المزور» «ذكريات».

وكتب كذلك عددًا من الكتب الهامة مثل «ما الذي أؤمن به؟»، وكتاب «ما هو الفن؟»، و «ثمار التنوير»، و«حِكَم النبي»، وكتاب «شكسبير والدراما» وجرب قلمه في المسرح أيضًا فكتب مسرحية «قوة الظلام» التي منع أداؤها من قبل الرقابة.

ولكن أبرز أعماله، وأكثرها شهرة في جميع دول العالم هي رائعته «الحرب والسلام» التي شرع في تأليفها عام ١٨٦٣م وانتهى منها عام ١٨٩٦م، وقد تناول فيها مراحل الحياة المختلفة، كما يصف الحوادث السياسية والعسكرية التي حدثت في أوربا في الفترة مابين ١٨٠٥ و١٨٢٠م. وتناول غزو نابليون لروسيا عام ١٨١٢م. كما سيجيء تفصيله لاحقًا.

ومن أشهر أعماله أيضًا التي حازت شهرةً واسعة وقبولًا لدى النقاد والقراء روايته «آنا كارنينا» التي عالج فيها قضايا اجتماعية وأخلاقية وفلسفية في شكل مأساة غرامية كانت بطلتها هي «آنا كارنينا». ومن رواياته أيضًا ذات الشهرة الواسعة رواية «البعث» التي كتبها سنة ١٨٩٩م.

وكانت له آراؤه النقدية والفلسفية الهامة، وكتب أيضًا العديد من المقالات من أجل ترسيخ بعض القيم الحسنة مثل المساواة بين البشر وتحرير الأقنان. وقد ترجمت جميع أعماله إلى مختلف لغات العالم.

وتشهد الترجمات المتعددة لمؤلفات تولستوي على الاهتمام الكبير بتراث تولستوي في المنطقة العربية. فلقد ترجم سليم قبعين إلى اللغة العربية ومن اللغة الروسية مباشرةً رواية «لحن كريتسر» وذلك في عام (١٩٠٤). كما ترجم في عام (١٩٠٩)، «تهديم الجحيم وإعادة بنائه»، وكما ذكرنا فإن رشيد حداد ترجم في عام (١٩٠٧) رواية «البعث» (١٨٩٩). كما ترجم أنطوان بلان في عام (١٩١٣) القصص الشعبية لتولستوي، أما عصام ناصيف فلقد ترجم «والنور في الظلمة يضيء».

وفي حقيقة الأمر نجد أن مؤلفات الكاتب الروسي العظيم تولستوي التي تم ترجمتها إلى اللغة العربية مباشرة من اللغة الروسية هي قليلة جدًّا بالنسبة لما كتبه تولستوي، وهذا، رغم أن العلاقات الثقافية والعلمية والأدبية بين البلدان العربية والاتحاد السوفييتي كانت في الفترة الأخيرة تنمو وتتوسع وتتعمق بسرعة ملحوظة، ومع هذا فإنّنا لا نجد عملًا نقديًا باللغة العربية حول أعمال تولستوي المترجمة إلى اللغة العربية وذلك لفقر المكتبة العربية بالمؤلفات المتخصصة في المكتبات وفي الأرشيف، فلقد ذكرت المستشرقة المعروفة، أستاذة الأدب العربي في جامعة لينينغراد الدكتورة آنا أركاديفنا دالينينا في مقالتها «الأدب الروسي في البلدان العربية» بأن مترجمي أعمال ليف تولستوي والأدباء الروس الآخرين في مطلع القرن العشرين حاولوا تزيين الترجمة وتقريبها، قدر الإمكان، إلى الأسلوب التقليدي، فلقد حاول المترجمون العرب تعزيز مواقفهم الفكرية مستندين بذلك على موقف تولستوي الفكري.

ترجمت في مطلع القرن العشرين مؤلفات تولستوي الفكرية والفلسفية والدينية. ولا نجد بين الترجمات العربية آنذاك رواية «الحرب والسلام» (١٨٦٣-١٨٦٩)، أو رواية «آنا كارينينا» (١٨٧٣-١٨٧٧). أو في أعمال تولستوي الإبداعية التي ألفها في الخمسينيات من القرن الماضي.

ويسمي المترجمون العرب ليف تولستوي معلمًا وفيلسوفًا عظيمًا، مع تطور الأدب العربي، يتطور تدريجيًا الاهتمام بتراث تولستوي، ففي الوقت الحاضر يهتم المترجمون والكتّاب والقرّاء والنقاد العرب بتراث تولستوي الإبداعي أكثر من اهتمامهم بمقالاته الفكرية.

رحيل تولستوي ورثاؤه

تولُستـــويُ تُجـــري آيَـةُ العِلـــمِ دَمعَهـــا
عَلَيـكَ وَيَبـكـــي بـائِـــسٌ وَفَقيـــــرُ
وَشَعبٌ ضَعيفُ الرُكــــنِ زالَ نَصيــرُهُ
وَمــــا كُـلُّ يَـومٍ لِلضَعيـفِ نَصيـــــرُ

أمير الشعراء أحمد شوقي

اللحظات الحاسمة

يلاحظ القارئ أنني بدأت الكتاب بلحظة خاسمة ومثيرة من حياة تولستوي وهي اللحظة التي بلغ فيها الزهد مبلغه عند تولستوي؛ حيث قرر تولستوي أن يتجرد من كل ما يملك ويسيح في أرض الله ويتأمل في الطبيعة باحثًا عن سر الحياة فيها. وبالفعل قام تولستوي بتنفيذ خطته في الزهد حيث جمع أمتعته وأشياءه في جوف الليل، وارتدى الخيش وأخشن الثياب وترك ضيعته ياسناي بوليانا؛ ولم يكن يضع خطة لما يستقبله من أيام في حياته الجديدة.

وفي الحقيقة لم تكن هاته أول مرة فكر فيها تولستوي في السياحة في أرض إله؛ ففي يوم ١٧ حزيران عام ١٨٨٤م حاول تولستوي أن يهجر ضيعته المحببة إلى قلبه ياسنايا بوليانا، لكن مشاعر الحب والشفقة على زوجته الحامل، وعلى أطفاله رفعت هذه الخطة من ذهنه ووضعتها على الرف، وعاد تولستوي وتابع الحياة في ضيعته كما كان.

وبعد ذلك كانت هناك عدة محاولات للفرار لكن تولستوي لم يمتلك القدر الكافي من الجرأة النفسية على تنفيذها ، وتأزم الوضع في ياسنايا بوليانا بخصوص وصيته التي كتبها بإلحاح من أصدقائه وأتباعه سرًّا عن العائلة في صيف ١٩١٩م.

وربما كان عدم التوافق في الطباع بين تولستوي وزوجته صوفيا؛ هو الذي شجعه على هذه الفكرة حيث إنه لم يكن هناك توافقًا بينهما بالمرة في الطباع؛ فقد كتبت زوجة تولستوي صوفيا أندريفنا في شهر شباط عام ١٨٨٢م رسالة حزينة إلى زوجها قالت فيها «لقد سارت حياتنا نحو الانفراد» وفي شهر شباط من العام نفسه كتبت في مذكراتها اعتراف زوجها إن أقوى فكرة لديه الآن هي أن يهجر الأسرة. وعدم التوافق في الطباع بينهما لا يمنع ولا يتعارض مع ما قررناه سابقًا من أنها ساعدت تولستوي في إبداعاته الأدبية؛ فهو نفسه اعترف بذلك الفضل عليه.

وجذور هذا الخلاف تعود إلى السنوات الأولى فمنذ الشهور الأولى لزواجهما اكتشف كل منهما أنه ينظر للأشياء بنظرة مختلفة وأن لكل منهما ذوقه الخاص وعاداته التي لا يرغب في التخلي عنها.

صدام تولستوي مع زوجته

وكتبت صوفيا أيضًا لزوجها في ٩ كانون أول عام ١٨٦٢م: «**نعم نحن نسير على دربين مختلفين منذ الطفولة؛ فأنت تحب القرية وأطفال الفلاحين، كما تحب كل هاته الحياة البدائية التي خرجت منها عندما تزوجتني. أما أنا فابنة مدينة كيفما حاولت التفكير وسعيت لأعشق القرية والشعب؛ فأنا لا أستطيع أن أحبهم من كل كياني ولن أفعل ذلك أبدًا أنا لا أفهم ولن أفهم هذه الطبيعة حتى آخر أيامي. إن وصفك لأطفال الفلاحين ولحياة الشعب ، وأحاديثك وحكاياتك لم تغير في شيء فأنت مثلما كنت في مدرسة ياسنايا بوليانا؛ لكن للأسف! إنك لم تحب أطفالك كثيرًا مثلما تحب أطفال الفلاحين**».

كان ذلك أول صدام حقيقي جدي بين تولستوي وزوجته صوفيا لا يمكن أن يزول بدون أثر. وشرحت سبب ذلك صوفيا فيما بعد في كتابها حياتي: «**كنت أغار دائمًا على تولستوي من الشعب من حبه لأطفال الفلاحين أكثر من حبه لأولاد السادة**».

وفي تلك الرسالة عبّرت بحدة وبشكل واضح وكأن الأمر يمكن أن يثير عواطفه وحبه. ولم تكن علاقة تولستوي وزوجته مستوية في أعوام الستينيات والسبعينيات لكن الاهتمام بالمنزل والأطفال سوّى من خشونة العلاقة بينهما. وحقيقة الأمر أن تولستوي وجد في صوفيا زوجته مساعدة رائعة لأعماله الأدبية وهناك كلمات إعجاب كثيرة عن مواهب صوفيا المتعددة في رسائل ومذكرات ريبن، وستراخوفا، ومقالات غوركي، والكثيرين من معارفها المعاصرين.

وفي عام ١٨٨٣م أعطى تولستوي تفويضًا تامًا لزوجته للقيام بالأعمال الاقتصادية وذلك لنقل صورة حياته بشكل يوازي نظراته الجديدة. وفي الوقت نفسه منح تولستوي العائلة الحق في نشر مؤلفاته الصادرة حتى عام ١٨٨١م.

وفيما بعد صيف ١٨٩٢ قسم تولستوي كل أملاكه المنقولة، وغير المنقولة بين أولاده وزوجته، لكن كافة هاته الإجراءات لم تخلص تولستوي من عدم رضائه على نمط حياته.

وكان تولستوي يتصور أنه بإمكان أي فلاح أن يقف في وجهه ويقول له في وجهه: (أيها العجوز اللعين تقول شيئًا وتفعل شيئًا آخر وتعيش بشكلٍ آخر مختلف. لقد حان وقت موتك وتحاول النفاق!) ثم أضاف تولستوي إلى هاته الكلمات التي تعبر عما يمكن أن يقال عنه قوله: (وهذا حقٌّ تمامًا فأنا كثير ما أستلم مثل هذه الرسائل من أصدقائي ومن يكتب لي غيرهم؟. هم على حق لا شك في ذلك. فأنا كل يوم أخرج إلى الشارع حيث يقف خمسة من الشحاذين الرثي الثياب أما أنا فأصعد على الفرس لأعلى وأنطلق وخلفي الحوذي!...)

وكان أنصار الكاتب وأتباعه يطالبونه وبإلحاح ببطولة التخلي عن العائلة والفرار من ياسناي بوليانا. فقد أرسل عليه أحد تلامذته وهو بوريس ماندجوس من مدينة كييف رسالة

في شهر شباط عام ١٩١٠م تضمنت ما اقترحه على تولستوي من توزيع أملاكه بين الفلاحين والتخلي عن لقب الكونت يقول: (الطيب والغالي ليف نيكولا يفيتيش هبوا الحياة للإنسان وللبشرية قوموا بتنفيذ الشيء الأخير الذي عليكم أن تقوموا به في الحياة... تخلوا عن لقب الكونت ووزّعوا أملاككم على الأقرباء والفقراء وابقوا بدون كوبيك وتنقّلوا مثل الشحاذين من مدينة إلى أخرى، تخلّوا عن أنفسكم إذا لم تستطيعوا التخلي عن الأقرباء في دائرة الأسرة القريبة).

- لكن ما موقف تولستوي من مثل هاته الرسائل التي انسالت عليه؟

قال تولستوي ردًّا على مثل هذه الرسائل: (أعرف جيدًا كل هذا، بل أعرفه وأتهيّأ له من كل روحي، ولكن لا أستطيع أن أفلت، هل تعرفون لماذا؟ لأنني أخاف أن أمرّ عبر الدماء وفوق الجثث، هذا مرعب، لذلك من الأفضل أن أعيش حتى آخر هذه الحياة الكريهة.)

تولستوي يهجر أهله

بلغ الصراع ذروته ويمكن نقول إن تولستوي مُزِّق إلى أجزاء؛ فالمعسكران المتصارعان فيما بينهما؛ ساعدا على خلق ظروف حياتية لم يقوى تولستوي على تقبُّلها وتحمّلها في أمورٍ لا تطاق بالنسبة له. وكان تولستوي يحتاج إلى دفعة واحدة؛ كي ينفّذ فكرته القديمة التي سبق وتراجع عنها وهي ترك ضيعته والسياحة في القرى والتنقّل بين أكواخ الفلاحين والشحّاذين.

وبالفعل تلقّى تولستوي هاته الدفعة عندما شاهد زوجته صوفيا تعبث بين أوراقه في مكتبه باحثةً عن الوصية التي كتبها زوجها.

وبالفعل انطلق تولستوي في تنفيذ خطته وبدأ يُلملم بعض أشيائه وكتبه بما تبقى في جسده وروحه من قوة، وهاجر من ضيعته ياسنايا بوليانا؛ ليعيش بين عامة الشعب فهذه أمنيته التي طالما تمنّاها من زمن بعيد؛ تمنى أن يتخلى عن حياة الثراء والرفاهية ويقطن بين الفلاحين في بيت بسيط ويبدأ حياة جديدة..

وداعًا تولستوي

لقد انقطع فجأة طريق تولستوي إلى الضفة الأخرى وبشكل مأساوي لقد التهبت رئتاه في المقطورة واضطر لمغادرة القطار في تلك المحطة المعزولة والغير معروفة لدى الجميع (استبافور) على الخط الحديدي، موسكو كورسك. تلك المحطة التي سرعان ما ذاع اسمها بمجرد حلول تولستوي فيها؛ حتى إنه لم يغادر اسمها صفحات الجرائد طوال الأيام السبعة التي حاول فيها الأطباء جاهدين من أجل الإبقاء على حياة الأديب العالمي تولستوي.

لكن الله شاء أن تكون نهاية الأديب الذي حلَّق أدبه وفكره في مختلف بقاع العالم - في هذه البقعة من أرض روسيا؛ فلم يعد قلب تولستوي يتحمل المرض؛ فتوقف قلب تولستوي عن النبض في الساعة السادسة وخمس دقائق من صباح السابع من تشرين الأول عام ١٩١٠م.

وإكرامًا لحلول تولستوي بهذه المحطة البسيطة فقد سميت باسمه وأصبحت تُدعى (محطة ليف تولستوي).

خبر وفاة تولستوي صدمة للعالم

وتلقى الناس في العالم أجمع خبر وفاة الأديب العالمي ليف تولستوي بحزن شديد؛ فقد مات جسد الرجل الذي أحبوه كثيرًا وعشقوا كتاباته وأفكاره التي حررتهم من ذلِّ القيد والعبودية؛ لكن الذي خفف عنهم أنه إذا كان مات جسده فإن إبداعاته وكتاباته باقية بينهم يتسلون بها عن مصيبتهم في فقد تولستوي.

وحضر القساوسة بعد ذلك إلى محطة القطار التي مات بها تولستوي وظلوا يتتابعون مع الناس من وقت لآخر وخاصةً في أيام مرض تولستوي وقبل رحيله بساعات بسيطة. وكان هدف القساوسة من هاته الزيارات المتكررة لتولستوي؛ هي أن يبرهنوا للناس جميعًا

ولمواطني روسيا أن تولستوي قد أعلن توبته قبل وفاته وندم على ما قاله في حق الكنيسة وقساوستها. ولم يكن هذا صحيحًا بالمرة فقد ظل تولستوي متمسكًا برأيه لآخر لحظة في حياته.

ولكن ما حدث هو أن المطران «تولا بارفيني» جاء سرًّا إلى تولستوي، وأخبر الشرطة بأنه وصل بناء على طلب من الحاكم الإمبراطوري وبمهمة من المجمع الكنائسي. وسأل بارفيني أفراد أسرة تولستوي عما إذا كان قد عبَّر قبل وفاته عن مصالحة الكنيسة.

وقدم بعد ذلك مدير إدارة الشرطة (ن. ب. خارلاموف) تقريرًا لوزارة الداخلية أن مهمة المطران بارفيني لم تلق النجاح حيث إنه لم يؤكد له أحدٌ من أفراد أسرة تولستوي أنه قد عبر قبل وفاته بالمصالحة مع الكنيسة.

تم بعد ذلك دفن تولستوي حسب وصيته في غابة «زمازاز» في ضيعته ياسنايا بوليانا على طرف الوادي الكبير في هذا المكان الذي قال عنه شقيقه الحبيب نيكولاي: «هنا تحفظ العصا الخضراء».

وشبّه غوركي موت تولستوي بكارثة طبيعية وبإعصار جائح.. حقًّا لقد كان موت تولستوي مصيبة شعبية وخسارة من أكبر الخسارات للبشرية جمعاء. وأنهى غوركي نعيه لتولستوي بقوله : «نعم مات تولستوي الإنسان لكن الكاتب العظيم حي إلى الأبد معنا ..»

تولستوي مع حصانه المحبوب عام ١٩٠٨ م وقبل وفاته بعامين

رثاء تولستوي

حين انتشر خبر وفاة الأديب العالمي تولستوي في شتى بلدان العالم، غلّفت الحسرة الوجوه، وحزن الناس أشد الحزن على رحيل فيلسوف البسطاء، أو بالأحرى فيلسوف الغلابة الذي سخر قلمه من أجل خدمة الطبقات الكادحة من الشعب ومن أجل الدفاع عن حقوقهم، وآمالهم في الحياة، واكتفى البسطاء والعامة من الناس أن شيعوا تولستوي بدموعهم الغزيرة.

لكن شعراء كل أمة وكل شعب هم لسان حال الأمة؛ يخلدون أهم اللحظات ليس في تاريخ الأمة فقط، بل في تاريخ البشرية كلّها؛ لذلك لم يلبث أن لهج شعراء العالم وكُتابه بمختلف أهوائهم ومذاهبهم أن رثوا تولستوي بأحرّ الكلمات والقصائد التي سجلها التاريخ، وأرى لزامًا علينا أن نعرض صورة من هذه الصور وهي لشعراء وكتاب العرب الذين رثوا تولستوي بأحر الكلمات التي شرحت لنا من هو تولستوي. لذا آثرت أن أعرض لقصيدتين كاملتين لشاعرين مصريين يعدان من أبرز شعراء القرن العشرين ليس في مصر وحدها بل في العالم العربي أجمع، وهما أمير الشعراء أحمد بك شوقي (١٨٦٨-١٩٣٢)، وشاعر النيل حافظ إبراهيم (١٨٧٢-١٩٣٢).

أولا: رثاء أمير الشعراء لتولستوي

وقد بنى الشاعر أحمد شوقي رثاءه لتولستوي على شكل حوار بين تولستوي وبين الشاعر العربي أبي العلاء المعري. وقد وصف أمير الشعراء أحمد شوقي الكاتب الروسي بالحكمة والشجاعة؛ فعليه يحزن الفقراء والمساكين، لأنّه نصير الضعفاء، ومن الصعب على الإنسان الفقير أن يجد لنفسه نصيرًا. يبكيه الفقراء؛ لأنّه منارتهم ويبكيه المؤمنون، لأنّه أخذ

من الدين جوهره، وإذا كان لابدّ من طقس الاعتراف فيجب أن نذهب ونعترف بخطايانا إلى تولستوي وليس إلى الكاهن، لأنّه دافع عن الفقراء، ضد ظلم الأغنياء، ولأنّه ناضل ضد الحروب بكل أشكالها، ونادى بالمحبة. ويرى شوقي أنّ تولستوي يشبه السيّد المسيح فيقول:

تطوف كعيس بالحنان وبالرضى عليهم، وتغشى دورهم وتزور

ويرى شوقي أنّ تولستوي يخدم لب الدين، ويخدم الناقمون عليه قشور الدين، ولعل كل كتاب من كتبه يشبه الإنجيل في قدسيته، وسمع شوقي عن هرب تولستوي من بيته.

وهاهي القصيدة كاملةً كما وردت في الشوقيات يقول شوقي:

تولُستويُ تُجري آيَةُ العِلمِ دَمعَها عَلَيكَ وَيَبكي بائِسٌ وَفَقيرُ
وَشَعبٌ ضَعيفُ الرُكنِ زالَ نَصيرُهُ وَما كُلُّ يَومٍ لِلضَعيفِ نَصيرُ
وَيَندُبُ فَلّاحونَ أَنتَ مَنارُهُم وَأَنتَ سِراجٌ غَيَّبوهُ مُنيرُ
يُعانونَ في الأَكواخِ ظُلماً وَظُلمَةً وَلا يَملُكونَ البَثَّ وَهوَ يَسيرُ
تَطوفُ كَعيسى بِالحَنانِ وَبِالرِضى عَلَيهِم وَتَغشى دورَهُم وَتَزورُ
وَيَأسى عَلَيكَ الدينُ إِذ لَكَ لُبُّهُ وَلِلخادِمينَ الناقِمينَ قُشورُ
أَيَكفُرُ بِالإِنجيلِ مَن تِلكَ كُتبُهُ أَناجيلُ مِنها مُنذِرٌ وَبَشيرُ
وَيَبكيكَ إِلفٌ فَوقَ لَيلى نَدامَةً غَداةَ مَشى بِالعامِرِيِّ سَريرُ
تَناوَلَ ناعيكَ البِلادَ كَأَنَّهُ يَراعٌ لَهُ في راحَتَيكَ صَريرُ
وَقيلَ تَوَلّى الشَيخُ في الأَرضِ هائِماً وَقيلَ بِدَيرِ الراهِباتِ أَسيرُ
وَقيلَ قَضى لَم يُغنِ عَنهُ طَبيبُهُ وَلِلطِبِّ مَن بَطشِ القَضاءِ عَذيرُ
إِذ أَنتَ جاوَرتَ المَعَرِّيَّ في الثَرى وَجاوَرِ رَضوى في التُرابِ ثَبيرُ

وَأَقبَلَ جَمعُ الخالِدينَ عَلَيكُما ... وَغالى بِمِقدارِ النَظيرِ نَظيرُ

جَماجِمُ تَحتَ الأَرضِ عَطَّرَها شَذىً ... جَناهُنَّ مِسكٌ فَوقَها وَعَبيرُ

بِهِنَّ يُباهي بَطنُ حَوّاءَ وَاحتَوى ... عَلَيهِنَّ بَطنُ الأَرضِ وَهوَ فَخورُ

فَقُل يا حَكيمَ الدَهرِ حَدِّث عَنِ البِلى ... فَأَنتَ عَليمٌ بِالأُمورِ خَبيرُ

أَحَطتَ مِنَ المَوتى قَديمًا وَحادِثًا ... بِما لَم يُحَصِّل مُنكِرٌ وَنَكيرُ

طَوانا الَّذي يَطوي السَمَواتِ في غَدٍ ... وَيَنشُرُ بَعدَ الطَيِّ وَهوَ قَديرُ

تَقادَمَ عَهدانا عَلى المَوتِ وَاستَوى ... طَويلُ زَمانٍ في البِلى وَقَصيرُ

كَأَن لَم تَضِق بِالأَمسِ عِنّى كَنيسَةٌ ... وَلَم يُؤوِني دَيرٌ هُناكَ طَهورُ

أَرى راحَةً بَينَ الجَنادِلِ وَالحَصى ... وَكُلُّ فِراشٍ قَد أَراحَ وَثيرُ

نَظَرنا بِنورِ المَوتِ كُلَّ حَقيقَةٍ ... وَكُنّا كِلانا في الحَياةِ ضَريرُ

إِلَيكَ اِعتِرافي لا لِقَسٍّ وَكاهِنٍ ... وَنَجواىَ بَعدَ اللَهِ وَهوَ غَفورُ

فَزُهدُكَ لَم يُنكِرهُ في الأَرضِ عارِفٌ ... وَلا مُتَعالٍ في السَماءِ كَبيرُ

بَيانٌ يُشَمُّ الوَحيُ مِن نَفَحاتِهِ ... وَعِلمٌ كَعِلمِ الأَنبِياءِ غَزيرُ

سَلَكتُ سَبيلَ المُترَفينَ وَلَذَّ لي ... بَنونَ وَمالٌ وَالحَياةُ غُرورُ

أَداةُ شِتائي الدِفءُ في ظِلِّ شاهِقٍ ... وَعُدَّةُ صَيفي جَنَّةٌ وَغَديرُ

وَمُتِّعتُ بِالدُنيا ثَمانينَ حِجَّةً ... وَنَضَّرَ أَيّامي غِنىً وَحُبورُ

وَذِكرٌ كَضَوءِ الشَمسِ في كُلِّ بَلدَةٍ ... وَلا حَظَّ مِثلُ الشَمسِ حينَ تَسيرُ

فَما راعَني إِلّا عَذارى أَجَرنَني ... وَرُبَّ ضَعيفٍ تَحتَمي فَيُجيرُ

أَرَدتُ جِوارَ اللَهِ وَالعُمرُ مُنقَضٍ ... وَجاوَرتُهُ في العُمرِ وَهوَ نَضيرُ

صِباً وَنَعيمٌ بَينَ أَهلٍ وَمَوطِنٍ وَلَذّاتُ دُنيا كُلُّ ذاكَ نَزورُ
بِهِنَّ وَما يَدرينَ ما الذَنبُ خَشيَةٌ وَمِن عَجَبٍ تَخشى الخَطيئَةَ حورُ
أَوانِسُ في داجٍ مِنَ اللَيلِ موحِشٍ وَلِلَّهِ أُنسٌ في القُلوبِ وَنورُ
وَأَشبَهُ طُهرٍ في النِساءِ بِمَريَمٍ فَتاةٌ عَلى نَهجِ المَسيحِ تَسيرُ
تُسائِلُني هَل غَيَّرَ الناسُ ما بِهِم وَهَل حَدَثَت غَيرَ الأُمورِ أُمورُ
وَهَل آثَرَ الإِحسانَ وَالرِفقَ عالَمٌ دَواعي الأَذى وَالشَرُّ فيهِ كَثيرُ
وَهَل سَلَكوا سُبلَ المَحَبَّةِ بَينَهُم كَما يَتَصافى أُسرَةٌ وَعَشيرُ
وَهَل آنَ مِن أَهلِ الكِتابِ تَسامُحٌ خَليقٌ بِآدابِ الكِتابِ جَديرُ
وَهَل عالَجَ الأَحياءُ بُؤساً وَشِقوَةً وَقَلَّ فَسادٌ بَينَهُم وَشُرورُ
قُمِ اِنظُر وَأَنتَ المالِئُ الأَرضَ حِكمَةً أَأَجدى نَظيمٌ أَم أَفادَ نَثيرُ
أُناسٌ كَما تَدري وَدُنيا بِحالِها وَدَهرٌ رَخِيٌّ تارَةً وَعَسيرُ
وَأَحوالُ خَلقٍ غابِرٍ مُتَجَدِّدٍ تَشابَهَ فيها أَوَّلٌ وَأَخيرُ
تَمُرُّ تِباعاً في الحَياةِ كَأَنَّها مَلاعِبُ لا تُرخى لَهُنَّ سُتورُ
وَحِرصٌ عَلى الدُنيا وَمَيلٌ مَعَ الهَوى وَغِشٌّ وَإِفكٌ في الحَياةِ وَزورُ
وَقامَ مَقامَ الفَردِ في كُلِّ أُمَّةٍ عَلى الحُكمِ جَمٌّ يَستَبِدُّ غَفيرُ
وَحُوِّرَ قَولُ الناسِ مَولىً وَعَبدُهُ إِلى قَولِهِم مُستَأجِرٌ وَأَجيرُ
وَأَضحى نُفوذُ المالِ لا أَمرَ في الوَرى وَلا نَهيَ إِلّا ما يَرى وَيُشيرُ
تُساسُ حُكوماتٌ بِهِ وَمَمالِكٌ وَيُذعِنُ أَقيالٌ لَهُ وَصُدورُ
وَعَصرٌ بَنوهُ في السِلاحِ وَحِرصُهُ عَلى السِلمِ يُجري ذِكرَهُ وَيُديرُ

وَمِن عَجَبٍ في ظِلِّها وَهوَ وارِفٌ يُصادِفُ شَعباً آمِناً فَيُغيرُ
وَيَأخُذُ مِن قوتِ الفَقيرِ وَكَسبِهِ وَيُؤوي جُيوشاً كَالحَصى وَيَميرُ
وَلَمّا اِستَقَلَّ البَرَّ وَالبَحرَ مَذهَباً تَعَلَّقَ أَسبابَ السَماءِ يَطيرُ

ومن الجدير بالذكر أنّ هاته القصيدة السابقة تُرجمت إلى اللغة الروسية، ونقلها إلى الروسية الشاعر جورافيلوف، ونشرت في «مختارات من الشعر العربي في مصر». صدرت في موسكو في عام ١٩٥٦.

كتب المستشرق السوفييتي المعاصر شيفمن، الذي كان يعمل في معهد تولستوي الأدبي في موسكو، حول رثاء أحمد شوقي لتولستوي: «**عندما نقرأ رثاء الشاعرالعربي نتحسس، مشاعر الاحترام العميق التي يحملها أحمد شوقي لتراث تولستوي الذي يتميز بنزعته الإنسانية.**

كما كتبت حول القصيدة المذكورة الباحثة السوفييتية شوستر: «إن رثاء أحمد شوقي لتولستوي ذو أهميةٍ كبيرةٍ بالنسبة لنا، لأنّه يكتب حول الكاتب الروسي العظيم، الذي كرس حياته من أجل سعادة الإنسانية».

ثانيا: رثاء الشاعر حافظ إبراهيم لتولستوي

وقد نشر الشاعر حافظ إبراهيم رثاءه لتولستوي مباشرةً بعد سماعه بوفاة الكاتب الروسي وبعد أن سمع برثاء أحمد شوقي له. فلقد توفي تولستوي في ٢١ تشرين الثاني عام ١٩١٠ وفي الشهر نفسه (نوفمبر سنة ١٩١٠م) نشر حافظ إبراهيم رثاءه لتولستوي. يقول:

رَثاكَ أَميرُ الشِعرِ في الشَرقِ وَاِنبَرى لِمَدحِكَ مِن كُتّابِ مِصرَ كَبيرُ
وَلَستُ أُبالي حينَ أَرثيكَ بَعدَهُ إِذا قيلَ عَنّي قَد رَثاهُ صَغيرُ

قَد كُنتَ عَونًا لِلضَعيفِ وَإِنَّني ضَعيفٌ وَما لي في الحَياةِ نَصيرُ
وَلَستُ أُبالي حينَ أَبكيكَ لِلوَرى حَوَتكَ جِنانٌ أَم حَواكَ سَعيرُ
فَإِنّي أُحِبُّ النابِغينَ لِعِلمِهِم وَأَعشَقُ رَوضَ الفِكرِ وَهوَ نَضيرُ
دَعَوتَ إِلى عيسى فَضَجَّت كَنائِسٌ وَهُزَّ لَها عَرشٌ وَمادَ سَريرُ
وَقالَ أُناسٌ إِنَّهُ قَولُ مُلحِدٍ وَقالَ أُناسٌ إِنَّهُ لَبَشيرُ
وَلَولا حُطامٌ رَدَّ عَنكَ كِيادَهُم لَضِقتَ بِهِ ذَرعًا وَساءَ مَصيرُ
وَلَكِن حَماكَ العِلمُ وَالرَأيُ وَالحِجا وَمالٌ إِذا جَدَّ النِزالُ وَفيرُ
إِذا زُرتَ رَهنَ المَحبَسَينِ بِحُفرَةٍ بِها الزُهدُ ثاوٍ وَالذَكاءُ سَتيرُ
وَأَبصَرتَ أُنسَ الزُهدِ في وَحشَةِ البِلى وَشاهَدتَ وَجهَ الشَيخِ وَهوَ مُنيرُ
وَأَيقَنتَ أَنَّ الدينَ لِلَّهِ وَحدَهُ وَأَنَّ قُبورَ الزاهِدينَ قُصورُ
فَقِف ثُمَّ سَلِّم وَاِحتَشِم إِنَّ شَيخَنا مَهيبٌ عَلى رَغمِ الفَناءِ وَقورُ
وَسائِلهُ عَمّا غابَ عَنكَ فَإِنَّهُ عَليمٌ بِأَسرارِ الحَياةِ بَصيرُ
يُخَبِّرُكَ الأَعمى وَإِن كُنتَ مُبصِرًا بِما لَم تُخَبِّر أَحرُفٌ وَسُطورُ
كَأَنّي بِسَمعِ الغَيبِ أَسمَعُ كُلَّ ما يُجيبُ بِهِ أُستاذُنا وَيُحيرُ
يُناديكَ أَهلًا بِالَّذي عاشَ عَيشَنا وَماتَ وَلَم يَدرُج إِلَيهِ غُرورُ
قَضَيتَ حَياةً مِلؤُها البِرُّ وَالتُقى فَأَنتَ بِأَجرِ المُتَّقينَ جَديرُ
وَسَمَّوكَ فيهِم فَيلَسوفًا وَأَمسَكوا وَما أَنتَ إِلّا مُحسِنٌ وَمُجيرُ
وَما أَنتَ إِلّا زاهِدٌ صاحَ صَيحَةً يَرِنُّ صَداها ساعَةً وَيَطيرُ
سَلَوتَ عَنِ الدُنيا وَلَكِنَّهُم صَبَوا إِلَيها بِما تُعطيهِمُ وَتَميرُ

حَياةُ الوَرى حَربٌ وَأَنتَ تُريدُها ... سَلامًا وَأَسبابُ الكِفاحِ كَثيرُ
أَبَت سُنَّةُ العُمرانِ إِلّا تَناحُرًا ... وَكَدحًا وَلَو أَنَّ البَقاءَ يَسيرُ
تُحاوِلُ رَفعَ الشَرِّ وَالشَرُّ واقِعٌ ... وَتَطلُبُ مَحضَ الخَيرِ وَهوَ عَسيرُ
وَلَولا اِمتِزاجُ الشَرِّ بِالخَيرِ لَم يَقُم ... دَليلٌ عَلى أَنَّ الإِلَهَ قَديرُ
وَلَم يَبعَثِ اللَهُ النَبِيّينَ لِلهُدى ... وَلَم يَتَطَلَّع لِلسَريرِ أَميرُ
وَلَم يَعشَقِ العَلياءَ حُرٌّ وَلَم يَسُد ... كَريمٌ وَلَم يَرجُ الثَراء فَقيرُ
وَلَو كانَ فينا الخَيرُ مَحضًا لَما دَعا ... إِلى اللَهِ داعٍ أَو تَبَلَّجَ نورُ
وَلا قيلَ هَذا فَيلَسوفٌ مُوَفَّقٌ ... وَلا قيلَ هَذا عالِمٌ وَخَبيرُ
فَكَم في طَريقِ الشَرِّ خَيرٌ وَنِعمَةٌ ... وَكَم في طَريقِ الطَيِّباتِ شُرورُ
أَلَم تَرَ أَنّي قُمتُ قَبلَكَ داعِيًا ... إِلى الزُهدِ لا يَأوي إِلَيَّ ظَهيرُ
أَطاعوا أَبيقورًا وَسُقراط قَبلَهُ ... وَخولِفتُ فيما أَرتَئي وَأُشيرُ
وَمِتُّ وَما ماتَت مَطامِعُ طامِعٍ ... عَلَيها وَلا أَلقى النِقيادَ ضَميرُ
إِذا هُدِمَت لِلظُلمِ دورٌ تَشَيَّدَت ... لَهُ فَوقَ أَكتافِ الكَواكِبِ دورُ
أَفاضَ كِلانا في النَصيحَةِ جاهِدًا ... وَماتَ كِلانا وَالقُلوبُ صُخورُ
فَكَم قيلَ عَن كَهفِ المَساكينِ باطِلٌ ... وَكَم قيلَ عَن شَيخِ المَعَرَّةِ زورُ
وَما صَدَّ عَن فِعلِ الأَذى قَولُ مُرسَلٍ ... وَما راعَ مَفتونَ الحَياةِ نَذيرُ

ومن الملاحظ أن رثاء حافظ إبراهيم لتولستوي لا يختلف كثيرًا من حيث الشكل والمضمون عن رثاء أحمد شوقي له. حتى أن القافية واحدة.

ويصف حافظ إبراهيم تولستوي بما وصفه به شوقي؛ فيقول: إنّ تولستوي كان عونًا للضعيف، ولا يهم الشاعر أكان تولستوي في الجنة أم في النار فحسبه أنّه عالم مفكر وأنّه دعا إلى المعروف ونهى عن المنكر.

كما أنه قارن بين المعري وبين تولستوي؛ فكلاهما كان زاهدًا ناسكًا، ويدير حديثًا بين المعري وتولستوي ويقول الأول للثاني تريد الحياة سلامًا وهي حرب وكفاح. لقد سلوت عن الدنيا وتهالك غيرك عليها. تحاول رفع الشر، وهو واقع.

ويقول المعري: لقد ناديت بما ناديت به، ولكن الناس يلهثون وراء الملذات والطيبات، ومتّ ومطامع الجشعين لم تمت. فقلوب الناس من صخر جبلت، فلا تؤثر فيها نصائح شيخ المعرة ولا أفكار كاتب الأرض الروسية العظيم.

مات الرجل لأحمد لطفي السيد

ولم يقتصر الأمر في رثاء تولستوي على الشعراء فقط، وإنما رثاه الكتاب كذلك والصحفيون؛ فبعد ثلاثة أيام فقط من وفاة تولستوي أيّ في ٢٤ تشرين الثاني كتب الأستاذ أحمد لطفي السيّد مقالًا في صحيفة «الجريدة» بعنوان «مات الرجل».

في جريدة «الجريدة» بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني عام ١٩١٠، العدد ١١٢٧، بعنوان «مات الرجل» يرى أحمد لطفي السيّد باشا في تولستوي صفات الهادي إلى الفضيلة والواعظ يقول: «المصيبة بفقدان هذا الحكيم مصيبة كبيرة».

ويذكر في مقالته أنّ تولستوي كان يكره الحرب سواء كانت الغلبة فيها لقومه أو على قومه، يحب السلام، يرى في الدين أنّه طهرٌ للنفس والمشاعر وحب القريب والغريب.

«فإذا كان تولستوي ليس رجل روسيا وحدها؛ بل رجل العالم والسلام، وإذا كان تولستوي ليس مسيحيًّا محدودًا بمذهبٍ معينٍ متعصبًا له؛ بل متسامحًا يقبل دين الفضيلة حيثما

وجد... فأخلق بمصيبة تولستوي أن تكون كما قدمنا خسارةً عالميةً، لا خسارة روسية أو خسارة مسيحية».

ويرى أحمد لطفي السيد أنّ تولستوي كتب رواية «البعث» بواقعيةٍ لم يكن منها عن الشهوات إلا حقائق عريانة، لاحظ فيها تغليب الشهوة على النبل في نفس بطل الرواية، ووصف فساد العدالة، وبعث أخلاق بطل الرواية. ويتحدث أحمد لطفي السيّد باشا عن رواية «لحن كريتسر». ويكتب عن الكاتب الروسي:«حسب تولستوي في أنّه خالد الأثر في حكمته وتعاليمه إنّ حياته الطويلةَ إنّما قضاها في صرف ملكاته وماله لخير الناس» (٤ص١٩٦).

الصحافة العربية ورثاء تولستوي

كذلك رثت الصحافة العربية تولستوي. فلقد ذكر مراسل جريدة: «الأخبار الروسية» في بيروت: «كل الصحافة العربية، بغض النظر عن الاتجاهات السياسية والعقائد الدينية، الصحافة المسيحية والإسلامية والماسونية والإنجيلية، المعتدلة والمتطرفة، المجلات والجرائد كلها، حتى المنشورات المتواضعة كلها، بدون استثناء رثت تولستوي «حكيم موسكو العظيم» أحد عظماء العالم القلائل «المعلم والواعظ والفيلسوف». وبعد ذلك يسمّي المؤلف الجرائد والمجلات التي رثت تولستوي: «المراقب» «الحضارة»، «الأهرام»، «الزهور»، «لسان الحال»، «البرق»، ذكرت الصحافة العربية شمائل ليف تولستوي الحميدة وطالبت الشعراء والكتّاب الدفاع عنه بكلمتهم. ويعلل مراسل جريدة «الأخبار الروسية» شعبية تولستوي بين القراء العرب بأنّه كاتب واسع الأفق ومعتدل الرأي فنجد في نظراته إلى الحياة بعض الأفكار المسيحية والإسلامية والماسونية والاشتراكية. ويرى مراسل الجريدة المذكورة، بأنّ تولستوي جعل مكانة الشعب الروسي لدى شعوب الشرق أكثر احترامًا من ذي قبل.